

سلسلة في التاريخ والحضارة الإسلامية



من مكة إلى قسطنطينة

قصة الدول الإسلامية الكبرى وعلمائها
من الأمويين إلى عصر النهضة

قصة العلم والعلماء

العثمانيون

العباسيون

الأمويون

ثلاثة عشر قرناً - ثلاث دول - مئات العلماء

عن هذا الكتاب

هذا الكتاب يجمع سلسلة من الدروس رُويت على مراحل، كلّ درس يجيب عن سؤال ويفتح سؤالاً جديداً. بدأت بسؤال بسيط: ما قصة الدولة الأموية من أولها إلى آخرها؟ ثم امتدت إلى العباسيين، ثم العثمانيين. ثم عادت الرحلة إلى نقطة البداية لثروى من جديد، لكن هذه المرة من جهة العلم: من هم العلماء في كل عصر، وماذا فعلوا، وكيف عاشوا مع السلطان أو ضده.

الكتاب الأول

القصة السياسية

الأمويون، والعباسيون، والعثمانيون: كيف قامت كل دولة، وكيف بلغت ذروتها، ولماذا سقطت.

- الدولة الأموية
- الدولة العباسية
- الدولة العثمانية

الكتاب الثاني

قصة العلم والعلماء

سبعة فصول تعيد الرحلة كلها من حلقات المسجد النبوي إلى جمعية العلماء في قسطنطينة.

- من الصحابة إلى بيت الحكمة
- من ابن سينا إلى ابن خلدون
- من سنان إلى ابن باديس

كيف تقرأه

المخططات

كل فصل يبدأ أو يمرّ بمخطط يلخّص العصر في نظرة واحدة: خط زمني، أو سلاسل الشيوخ والتلاميذ، أو أعمار العلماء جنباً إلى جنب.

الجداول

المقارنات كلها في جداول: الأئمة الأربعة، الدول الثلاث، البدو والحضر، ما أخذته أوروبا من كل عالم.

الوقفات

في الإطارات الذهبية أجوبة عن أسئلة طُرحت أثناء الرحلة: سلطنة الحريم، طوق الحمامة، إسلام المغول، ابن بطوطة والصوفية، سمرقند، العدد π ، البدو والحضر.

التواريخ

تُذكر السنة الهجرية ثم الميلادية (مثلاً 132هـ/750م). وحيث تختلف الروايات أو يشك المؤرخون، يُشار إلى ذلك صراحة.

الفهرس

6

الكتاب الأول القصة السياسية

7 الفصل الأول الدولة الأموية من مكة إلى قرطبة

9	الفتنة الكبرى: الطريق إلى العرش	8	الجدور: من هم بنو أمية؟
10	العهد المرواني (64-125هـ): الإنقاذ ثم الذروة	9	العهد السفيني (41-64هـ): التأسيس ثم الجرح
13	الفصل الثاني: صقر قريش والأندلس (138-422هـ / 756...)	12	السقوط (125-132هـ): سبع سنوات تهدم قرناً
13	لماذا سقطوا؟	13	الحصيلة: ما الذي تركه الأمويون؟

15 الفصل الثاني الدولة العباسية من بغداد إلى القاهرة

16	التأسيس: السفاح ثم المنصور	16	من هم العباسيون؟
18	عصر النفوذ التركي (232-334هـ)	17	العصر الذهبي (132-232هـ)
20	العصر السلجوقي (447-547هـ)	19	العصر البويهي (334-447هـ)
21	الكارثة: سقوط بغداد سنة 656هـ	20	النهضة الأخيرة (547-656هـ)
21	مقارنة: الأمويون والعباسيون	21	الخلافة الظل في القاهرة (659-923هـ)
		22	لماذا ضعفوا ثم سقطوا؟

23 الفصل الثالث الدولة العثمانية من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية في ثلاث قارات

24	التأسيس (699-857هـ)	24	الجدور: قبيلة على الحدود
26	الدولة تدخل العالم العربي: سليم الأول	25	الفتح الأكبر: محمد الفاتح والقسطنطينية
28	كيف كانت الدولة تُدار؟	27	سليمان القانوني: الذروة (926-974هـ / 1520-1566م)
31	التراجع أمام أوروبا (1110-1255هـ)	28	الركود والاضطراب (974-1110هـ)
32	النهاية (1908-1924م)	31	الإصلاح و"الرجل المريض" (1255-1336هـ)
33	لماذا ضعفت الدولة ثم سقطت؟	33	مقارنة بين الدول الثلاث

34

الكتاب الثاني قصة العلم والعلماء

35 الفصل الرابع ولادة العلوم من الصحابة إلى نهاية العصر الأموي

36	أول مشروع علمي في التاريخ الإسلامي: جمع القرآن	36	المنطلق: المسجد النبوي أول مدرسة
38	الأمصار تصبح مدارس	37	علماء الصحابة
39	علوم وُلدت في العصر الأموي	38	جيل التابعين
41	الشعر والأدب	41	العالم والسلطان
		41	البدور جاهزة

43 الفصل الخامس العصر الذهبي الأئمة الأربعة، وبيت الحكمة، وعلوم بغداد

45	الأئمة الأربعة: سلسلة واحدة	44	لماذا انفجر العلم في بغداد؟
48	اللغة: معركة البصرة والكوفة	47	العصر الذهبي لتدوين السنة
50	العلوم	49	الترجمة وبيت الحكمة
52	التصوف المبكر	51	التاريخ والأدب
		52	المحنة: من يملك السلطة الدينية؟

53 الفصل السادس عصر الموسوعيين ابن سينا وابن الهيثم والبيروني والغزالي وابن حزم

54	الفلاسفة	54	المفارقة الكبرى
57	العقيدة: البحث عن طريق وسط	55	العلماء التجريبيون
58	الفقه والحديث والسياسة	57	أبو حامد الغزالي (450-505هـ): حجة الإسلام
60	الجغرافيون والرحالة	59	الأدب
63	المؤسسات العلمية	60	الأندلس: قرطبة جوهرة العالم

64 الفصل السابع بين الصليبيين والمغول ابن رشد وابن عربي وابن النفيس والطوسي

66	الأندلس والمغرب: آخر مجد الفلسفة	65	عصر الحروب، وعصر العلم أيضاً
68	المشرق: العقل والنص والروح	68	ابن عربي (560-638هـ): الشيخ الأكبر
70	التاريخ والجغرافيا	69	الطب والهندسة: تحدي القدماء
71	الكارثة المغولية	70	العالم والسلطان: الصدام مستمر

74 الفصل الثامن عصر المماليك وابن خلدون حفظ الكنوز، وابن بطوطة، وولادة علم الاجتماع

75	ابن تيمية ومدرسته	75	عصر حفظ الكنوز
77	ابن بطوطة (703-770هـ): أعظم رحالة في التاريخ	76	عصر الموسوعات
80	غرناطة: الشمعة الأخيرة في الأندلس	78	العلوم: حتى بعد المغول
		81	ابن خلدون (732-808هـ): مؤسس علم الاجتماع

86 الفصل التاسع العصر العثماني ومفترق الطرق سنان وتقي الدين وكاتب جلي، والصدمة الكبرى

87	البدایات: الفاتح يجمع العلماء	87	مفترق الطرق
89	تقي الدين: المرصد الذي هُدم	88	الذروة: عصر سليمان
91	المغرب العربي: علماء في زمن الأزمات	90	القرن السابع عشر: أصوات تحذّر
92	لماذا تراجع العلم نسبياً؟	92	في الشرق: إيران والهند
		93	الصدمة: الجبرتي ونابليون

94 الفصل العاشر النهضة والإصلاح من الطهطاوي والأمير عبد القادر إلى ابن باديس ومالك بن نبي

96	مصر: التحديث من فوق	95	قبل الصدمة: حركات الإحياء في القرن الثامن عشر
97	الأمير عبد القادر: العالم المجاهد الصوفي	97	تونس: خير الدين
100	الجزائر: ابن باديس وجمعية العلماء	98	الإصلاح الديني: الأستاذ والتلميذ
		101	سنة 1924م: النهاية والسؤال المفتوح

الخاتمة الرحلة كلها الخريطة الكبرى، والدروس، ومكتبة الرحلة 102

الرحلة كلها في نظرة واحدة 103
مكتبة الرحلة: كتب ذكرت في هذه السلسلة وتستحق القر... 104

أسئلة وأجوبة على طريق الرحلة

وقفات

- | | | |
|----|---|-------------------------|
| 29 | سلطنة الحريم: هل حكمت النساء التركيات كل شيء؟ وهل كانت أول مرة؟ | الدولة العثمانية |
| 61 | طوق الحمامة: ما هو بالضبط، وماذا يعلمك إن قرأته؟ | عصر الموسوعيين |
| 72 | هل أسلم المغول بعد ذلك؟ كيف؟ وهل ندموا؟ | بين الصليبيين والمغول |
| 77 | هل أحب ابن بطوطة الصوفية؟ وهل تحدّث عنهم؟ | عصر المماليك وابن خلدون |
| 79 | ما هو العدد π (ط)؟ | عصر المماليك وابن خلدون |
| 79 | من أسس سمرقند في البداية؟ | عصر المماليك وابن خلدون |
| 83 | ماذا يقصد ابن خلدون بقوله: البدو أشجع، والحضر أغنى، والبدو يغزون الحضر ثم يتحضر...؟ | عصر المماليك وابن خلدون |



الكتاب الأول

القصة السياسية

ثلاث دول حكمت العالم الإسلامي ثلاثة عشر قرناً، من دمشق إلى بغداد إلى إسطنبول

الفصل الأول

الدولة الأموية

41-132 هـ · 661-750 م، ثم الأندلس حتى 1031 م

الفصل الثاني

الدولة العباسية

132-656 هـ · 750-1258 م، ثم القاهرة حتى 1517 م

الفصل الثالث

الدولة العثمانية

699-1341 هـ · 1299-1922 م



الدولة الأموية

من مكة إلى قرطبة

41-132 هـ · 661-750 م، ثم الأندلس حتى 1031 م

« لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت: إن شدّوها أرخيتها، وإن

أرخوها شدّدتها. »

تنسب إلى معاوية بن أبي سفيان

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|---|---|---|
| ١ | الجذور: من هم بنو أمية؟ | ٥ | السقوط (125-132 هـ): سبع سنوات تهدم قرناً |
| ٢ | الفتنة الكبرى: الطريق إلى العرش | ٦ | الفصل الثاني: صقر قريش والأندلس (138-422 هـ / 756-1031 م) |
| ٣ | العهد السفيفاني (41-64 هـ): التأسيس ثم الجرح | ٧ | الحصيلة: ما الذي تركه الأمويون؟ |
| ٤ | العهد المرواني (64-125 هـ): الإنقاذ ثم الذروة | ٨ | لماذا سقطوا؟ |

◆ الخلفاء الأمويون الأربعة عشر في دمشق، ثم الفصل الأندلسي

مروان 2	هشام	الوليد	عبد الملك	معاوية
750م	743م	724م	705م	685م
				661م

العهد السفيناني: دمشق

3. معاوية الثاني 64هـ · بضعة أشهر	2. يزيد بن معاوية 60-64هـ · 680-683م	1. معاوية بن أبي سفيان 41-60هـ · 661-680م
--------------------------------------	---	--

العهد المرواني: الإنقاذ والذروة

7. سليمان 96-99هـ · 715-717م	6. الوليد الأول 86-96هـ · 705-715م	5. عبد الملك بن مروان 65-86هـ · 685-705م	4. مروان بن الحكم 64-65هـ · 684-685م
10. هشام بن عبد الملك 105-125هـ · 724-743م	9. يزيد الثاني 101-105هـ · 720-724م	8. عمر بن عبد العزيز 99-101هـ · 717-720م	

الانهيار

14. مروان الثاني 127-132هـ · 744-750م	13. إبراهيم بن الوليد 126-127هـ · 744م	12. يزيد الثالث 126هـ · 744م	11. الوليد الثاني 125-126هـ · 743-744م
--	---	---------------------------------	---

الفصل الثاني: قرطبة

خلافة قرطبة 316-422هـ · 929-1031م	إمارة قرطبة 138-316هـ · 756-929م
--------------------------------------	-------------------------------------

■ دمشق: التأسيس والذروة ■ الانهيار والسقوط ■ الأندلس

1 الجذور: من هم بنو أمية؟

بنو أمية بطنٌ من قريش، ينتسبون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. هم أبناء عمومة بني هاشم، فهاشم جدّ النبي ﷺ وعبد شمس كانا أخوين. وكانوا في الجاهلية من أغنى بيوت مكة وأصحاب تجارة وزعامة.

قاد أبو سفيان بن حرب قريشاً في عداوتها للإسلام في أحد والخندق، ثم أسلم يوم فتح مكة سنة 8هـ/630م. أما ابنه معاوية فأسلم وصار من كتاب الوحي. ولّاه عمر بن الخطاب الشام بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان في طاعون عمواس، ثم جمع له عثمان الشام كلها. حكم معاوية الشام نحو عشرين سنة والياً، فبنى قاعدة صلبة وجيشاً منظماً وولاءً عميقاً لدى أهلها. وهذه هي البذرة الحقيقية للدولة.

والخليفة الثالث عثمان بن عفان كان أموياً أيضاً، وكان مقتله سنة 35هـ/656م الشرارة التي أشعلت كل ما بعدها.

الفتنة الكبرى: الطريق إلى العرش

٢

بويق علي بن أبي طالب بالخلافة، فرفض معاوية البيعة حتى يُقتَصَّ من قتلة عثمان. وتسلسلت الأحداث هكذا:

- ◆ معركة صفين سنة 37هـ/657م، وحين مالت الكفة رفع جيش الشام المصاحف على الرماح.
- ◆ التحكيم بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وانتهى دون حسم.
- ◆ خروج الخوارج على علي لأنهم رفضوا التحكيم، وقاتلهم في النهروان.
- ◆ اغتيال علي في الكوفة على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم في رمضان 40هـ/661م.
- ◆ بويق الحسن بن علي، ثم تنازل لمعاوية حقناً للدماء، فسُمِّي ذلك العام 41هـ "عام الجماعة".

وبهذا بدأت الدولة الأموية رسمياً، وعاصمتها دمشق.

العهد السفيني (41-64هـ): التأسيس ثم الجرح

٣

معاوية بن أبي سفيان: رجل الدولة

كان معاوية سياسياً داهية، تُنسب إليه "شجرة معاوية": لو كان بينه وبين الناس شجرة لما انقطعت، إن شدَّوها أرخاها وإن أرخوها شدَّها. ومن أبرز ما فعله:

- ◆ بنى أجهزة الدولة: ديوان الخاتم وديوان البريد والحرس الخاص.
- ◆ أنشأ أسطولاً بحرياً قوياً، وهو الذي انتصر قبل ذلك في معركة ذات الصواري أيام عثمان.
- ◆ أرسل حملات متتالية على القسطنطينية، واستشهد الصحابي أبو أيوب الأنصاري عند أسوارها.
- ◆ أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة 50هـ/670م، فصارت قاعدة لفتح المغرب.

لكن أخطر قراراته كان أخذ البيعة لابنه يزيد ولياً للعهد، فتحوّلت الخلافة من الشورى إلى الملك الوراثي. وهذه هي النقطة التي يدور حولها أكبر نقد تاريخي للأمويين.

يزيد بن معاوية: ثلاث سنوات من المآسي

رفض الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير البيعة. ثم جاءت ثلاث مآسٍ متتالية:

- ◆ كربلاء في 10 محرم 61هـ (أكتوبر 680م): قُتل الحسين ومعه أهل بيته على يد جيش عبيد الله بن زياد. صارت هذه المأساة جرحاً عميقاً في وجدان الأمة، ومنعطفاً حاسماً في تبلور التشيع.
- ◆ وقعة الحرّة سنة 63هـ: خلع أهل المدينة يزيد، فاستباحها جيشه بقيادة مسلم بن عقبة.
- ◆ حصار مكة سنة 64هـ لقتال ابن الزبير، واحتترقت الكعبة أثناءه. ثم مات يزيد فجأة فرُفع الحصار.

معاوية الثاني

حكم أشهراً قليلة ثم اعتزل ورفض أن يعهد لأحد، ومات شاباً. فانهار البيت السفياي، وبويع ابن الزبير خليفة في الحجاز والعراق ومصر وأجزاء من الشام. كاد الأمويون يخسرون كل شيء.

٤ العهد المرواني (64-125هـ): الإنقاذ ثم الذروة

مروان بن الحكم: إنقاذ اللحظة الأخيرة

اجتمع زعماء الشام في مؤتمر الجابية واختاروا مروان، وهو شيخ بني أمية من فرع آخر غير فرع أبي سفيان. ثم انتصر في معركة مرج راهط سنة 64هـ/684م على قبائل قيس الموالية لابن الزبير. لكن هذه المعركة زرعت عداوة قيس واليمن التي ستنتحر الدولة لاحقاً. مات مروان بعد أقل من سنة، بعد أن عهد لابنه عبد الملك.

عبد الملك بن مروان: المؤسس الثاني

ورث دولة ممزقة، وتركها أقوى مما كانت. ولحكمه ثلاثة محاور:

1. **توحيد الدولة بالقوة:** قضى مصعب بن الزبير على ثورة المختار الثقفي في الكوفة، ثم هزم عبد الملك مصعباً سنة 72هـ، ثم حاصر الحجاج بن يوسف مكة وقتل عبد الله بن الزبير سنة 73هـ/692م.

2. **الحجاج والياً على العراق:** حكمه بيد من حديد، فقمع الخوارج وثورة ابن الأشعث، وبنى مدينة واسط. وفي عهده نُقِط المصحف وشُكِّل لتسهيل قراءته على غير العرب.

3. **الإصلاحات الكبرى، وهي أعظم إرثه:**

- ♦ تعريب الدواوين، أي نقل الإدارة من الفارسية والرومية إلى العربية.
- ♦ سكّ الدينار الإسلامي الخالص سنة 77هـ/696م، بعد أن كانت العملة بيزنطية وفارسية.
- ♦ بناء قبة الصخرة في القدس سنة 72هـ/691م.

واستؤنفت الفتوحات، ففتح حسان بن النعمان قرطاج وواجه الكاهنة في المغرب.

الوليد بن عبد الملك: العصر الذهبي

في عشر سنوات فقط بلغت الدولة أوسع امتداد لها، بثلاث جبهات في وقت واحد:

المشرق	الهند	المغرب والأندلس
قتيبة بن مسلم الباهلي يفتح بخارى وسمرقند (93هـ/712م) ويبلغ حدود الصين	محمد بن القاسم الثقفي، شاباً في السابعة عشرة، يفتح السند (92هـ/711م)	طارق بن زياد يعبر المضيق (92هـ/711م)، ينتصر في وادي لكة، ثم يكمل موسى بن نصير فتح معظم شبه الجزيرة

وفي العمران بنى الوليد الجامع الأموي في دمشق، ووسّع المسجد النبوي، وأنشأ من أوائل البيمارستانات المنظمة (88هـ/707م). كما خصص رواتب ورعاية للمجذومين والعميان والمقعدين.

سليمان بن عبد الملك

أرسل أكبر حملة على القسطنطينية (98-99هـ / 717-718م) بقيادة أخيه مسلمة، براً وبحراً. لكنها فشلت بسبب الشتاء القارس والنار الإغريقية وهجمات البلغار. وانتقم سليمان من قادة الحجاج والوليد، فقتل قتيبة بعد تمرده، ومات محمد بن القاسم في السجن، وأذلّ موسى بن نصير.

أما أهم قراراته فكان العهد بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز، بنصيحة العالم رجاء بن حيوة.

عمر بن عبد العزيز: خامس الراشدين

سنتان ونصف فقط، لكنها صارت رمزاً للعدل في التاريخ الإسلامي:

- ♦ ردّ المظالم وبدأ بأهل بيته وأمواله الخاصة.
- ♦ أسقط الجزية عن الموالي الذين أسلموا من غير العرب.
- ♦ أوقف سبّ علي بن أبي طالب على المنابر.
- ♦ أمر بتدوين الحديث النبوي رسمياً لأول مرة.
- ♦ سحب الجيش من أسوار القسطنطينية وفُضِّل الدعوة على التوسع.

ثُرِي عنه قصة أن الزكاة جُمعت في إفريقية فلم يوجد فقير يأخذها. مات سنة 101هـ، ويقال إنه مات مسموماً على يد من أضرت إصلاحاته بمصالحهم.

يزيد الثاني

تراجع عن معظم إصلاحات عمر وانشغل باللهو. وفي عهده اشتعلت ثورة يزيد بن المهلب في العراق واحتدّ صراع القيسية واليمانية.

هشام بن عبد الملك: آخر الأقوياء

حكم عشرين سنة. كان إدارياً حازماً ومقتصدًا إلى حد البخل حسب الروايات. لكن الدولة بلغت حدودها القصوى، وصارت الحروب تستنزفها على كل الجبهات:

- ♦ في فرنسا: معركة بلاط الشهداء سنة 114هـ/732م، استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي أمام شارل مارتل، وتوقف التوسع في أوروبا.
- ♦ في المغرب: ثورة البربر الكبرى سنة 122هـ/740م، أشعلها الظلم ودعوة الخوارج الصفرية، وفيها هُزم الجيش الأموي هزيمة مدوية في "غزوة الأشراف".
- ♦ في القوقاز: حروب طاحنة ضد الخزر.

♦ فيما وراء النهر: معارك مكلفة ضد الترك.

♦ في الكوفة: ثورة زيد بن علي سنة 122هـ.

وحين مات هشام، بدأ الانهيار بسرعة مذهلة.

٥ السقوط (125-132هـ): سبع سنوات تهدم قرناً

البيت ينقسم على نفسه

♦ الوليد الثاني كان شاعراً، واشتهر باللهو والمجون، واضطهد أبناء عمومته. فقتلوه سنة 126هـ، وكانت أول مرة يقتل فيها الأمويون خليفتهم بأيديهم.

♦ يزيد الثالث لُقّب "الناقص" لأنه أنقص عطاء الجند، ومات بعد ستة أشهر.

♦ إبراهيم بن الوليد لم تكتمل بيعته، وخلعه مروان بن محمد.

♦ مروان الثاني كان قائداً عسكرياً فذاً لُقّب "الحمار" لصبره في الحروب، لكنه جاء متأخراً جداً. نقل العاصمة إلى حرّان، وقضى سنواته في إخماد ثورات الشام والعراق.

الثورة العباسية

بينما كان الأمويون يتقاتلون، كانت تُنسج في الخفاء دعوة سرية منذ عشرات السنين:

1. انطلقت من الحميمة جنوب الأردن، بقيادة بني العباس عمّ النبي ﷺ.

2. رفعت شعاراً ذكياً هو "الرضا من آل محمد"، فاستقطبت الشيعة والموالي الساخطين.

3. في رمضان 129هـ/747م رفع أبو مسلم الخراساني الرايات السود في مرو بخراسان.

4. زحفت الجيوش غرباً، وبويع أبو العباس السفاح خليفةً في الكوفة سنة 132هـ.

5. في معركة الزاب الكبرى (جمادى الآخرة 132هـ / يناير 750م) هزم عبد الله بن علي جيش مروان.

6. فرّ مروان إلى مصر، وقُتل في بوصير في ذي الحجة 132هـ / أغسطس 750م.

ثم جاءت مذبحة نهر أبي فطرس قرب يافا، إذ دعا عبد الله بن علي عشرات الأمراء الأمويين بعد أن أعطاهم الأمان، ثم قتلهم. ونبشت قبور خلفائهم، باستثناء قبر عمر بن عبد العزيز حسب الروايات.

انتهت الدولة الأموية في المشرق بعد نحو تسعين عاماً و14 خليفة. لكن القصة لم تنتهِ.

٦ الفصل الثاني: صقر قريش والأندلس (138-422هـ / 756-1031م)

نجا من المذبحة شاب في التاسعة عشرة، هو عبد الرحمن بن معاوية، حفيد هشام بن عبد الملك. عبر نهر الفرات سباحةً بينما قُتل أخوه الصغير أمام عينيه. ثم تنقّل متخفياً بين فلسطين ومصر والمغرب سنوات عدة، واحتفى بأخواله من قبيلة نفزة البربرية. وأرسل مولاه الوفيّ بدرأ إلى الأندلس ليمهّد له.

- ♦ في سنة 138هـ عبر إلى الأندلس، وانتصر على واليها يوسف الفهري في معركة المصارة، ودخل قرطبة وأسس الإمارة الأموية.
- ♦ لقّب "الداخل"، وسماه عدوه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور "صقر قريش" إعجاباً به.
- ♦ بدأ بناء جامع قرطبة الشهير.
- ♦ بعد قرنين، أعلن حفيده عبد الرحمن الثالث "الناصر لدين الله" الخلافة سنة 316هـ/929م، رداً على قيام الخلافة الفاطمية. بنى مدينة الزهراء، وصارت قرطبة أعظم مدن أوروبا.
- ♦ جمع ابنه الحكم المستنصر مكتبة قُدّرت بنحو 400 ألف مجلد.
- ♦ ثم صار الخليفة هشام المؤيد ألعبوة بيد حاجبه القوي المنصور بن أبي عامر.
- ♦ اندلعت الفتنة سنة 399هـ، وألغيت الخلافة نهائياً سنة 422هـ/1031م، وتفرقت الأندلس إلى ملوك الطوائف.

٧ الحصيلة: ما الذي تركه الأمويون؟

الإنجازات	المآخذ
أوسع دولة في عصرها، من الأطلسي وجبال البرانس إلى السند وحدود الصين	تحويل الخلافة إلى ملك وراثي
تعريب الإدارة والعملة، فصارت العربية لغة حضارة وعلم	كربلاء ووقعة الحرّة وضرب الكعبة
بناء جهاز دولة متكامل: دواوين وبريد وأسطول	التمييز ضد الموالي من غير العرب
روائع العمارة: قبة الصخرة، الجامع الأموي، جامع قرطبة	تغذية العصبية القبلية بين قيس واليمن
تنقيط المصحف وتدوين الحديث وإنشاء البيمارستانات	المراعات الدموية داخل الأسرة الحاكمة

٨ لماذا سقطوا؟

1. نظام ولاية العهد المزدوجة، كأن يعهد الخليفة لاثنتين متتاليتين، فيولد الصراع على العرش.
2. العصبية القبلية بين قيس واليمن، التي مرّقت جيش الشام نفسه، وهو عمود الدولة.
3. سخط الموالي الذين أسلموا ولم يُعامَلوا كالعرب.

4. المعارضة الدائمة من الشيعة والخوارج.
5. استنزاف الحروب على حدود مترامية.
6. تنظيم الدعوة العباسية المحكم، وخزّانها البشري في خراسان.



الدولة العباسية

من بغداد إلى القاهرة

132-656 هـ · 750-1258 م، ثم القاهرة حتى 1517 م

« الجواب ما تراه، لا ما تسمعه. »

هارون الرشيد إلى نقفور إمبراطور الروم

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|--------------------------------|----|--------------------------------------|
| ١ | من هم العباسيون؟ | ٧ | النهضة الأخيرة (547-656 هـ) |
| ٢ | التأسيس: السفاح ثم المنصور | ٨ | الكارثة: سقوط بغداد سنة 656 هـ |
| ٣ | العصر الذهبي (132-232 هـ) | ٩ | الخلافة الظل في القاهرة (659-923 هـ) |
| ٤ | عصر النفوذ التركي (232-334 هـ) | ١٠ | مقارنة: الأمويون والعباسيون |
| ٥ | العصر البويهى (334-447 هـ) | ١١ | لماذا ضعفوا ثم سقطوا؟ |
| ٦ | العصر السلجوقي (447-547 هـ) | | |

◆ عصور الخلافة العباسية، ومن كان يملك السلطة الفعلية في كل عصر

الذهبي	الأثراك	البويهيون	السلجقة	النهضة	القاهرة
750م	847م	945م	1055م	1152م	1258م
العصر الذهبي 132-232 هـ - 750-847 م السلطة الفعلية: الخليفة السفاح، المنصور، الرشيد، المأمون، المعتصم	عصر النفوذ التركي 232-334 هـ - 847-945 م السلطة الفعلية: قادة الجند الترك المتوكل، المعتصم، المعتز	العصر البويهي 334-447 هـ - 945-1055 م السلطة الفعلية: أمراء بني بويه المطيع، القادر، القائم	استعادة السلطة 547-656 هـ - 1152-1258 م السلطة الفعلية: الخليفة في العراق المعتز، الناصر، المستعصم	الخلافة في القاهرة 659-923 هـ - 1261-1517 م السلطة الفعلية: سلاطين المماليك المستنصر، المتوكل الثالث	العصر السلجوقي 447-547 هـ - 1055-1152 م السلطة الفعلية: السلاطين السلجقة القائم، المعتز، المسترشد

■ الخليفة يحكم فعلياً ■ الخليفة رمز، والحكم لغيره ■ خلافة رمزية في مصر

١ من هم العباسيون؟

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب، عمّ النبي ﷺ. وصلوا إلى الحكم بالثورة التي أسقطت الأمويين سنة 132هـ/750م. لم يكن ذلك مجرد تغيير أسرة حاكمة، بل تحوّل عميق في طبيعة الدولة كلها:

- ◆ انتقل مركز الثقل من الشام إلى العراق، ومن عاصمة متجهة نحو البحر المتوسط إلى عاصمة متجهة نحو فارس والشرق.
- ◆ كانت الدولة الأموية دولة عربية، فصارت دولة أممية، يتولى فيها الفرس ثم الترك أعلى المناصب.
- ◆ توقفت الفتوحات الكبرى تقريباً، وحلّت محلها التجارة والعلم والحضارة.

٢ التأسيس: السفاح ثم المنصور

أبو العباس السفاح (132-136هـ)

حكم أربع سنوات قضاها في تصفية بقايا الأمويين وتثبيت الحكم. وفي عهده وقعت معركة طلاس سنة 133هـ/751م ضد الصين في آسيا الوسطى. وتقول الرواية الشائعة إن صناعة الورق انتقلت إلى العالم الإسلامي عبر أسرى صينيين من هذه المعركة، وسيكون للورق دور هائل في النهضة العلمية لاحقاً.

أبو جعفر المنصور (136-158هـ): المؤسس الحقيقي

كان صارماً، مقتصدًا، وداهية سياسية. وأبرز ما فعله:

- ♦ **تخلّص من كل منافس:** قتل أبا مسلم الخراساني، صانع الثورة الذي صار نفوذه مخيفاً، وقضى على تمرد عمه عبد الله بن علي، وعلى ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم من آل علي سنة 145هـ. وهنا انكسر التحالف القديم بين العباسيين والعلويين، فالشيعة شعروا أن الثورة التي ساندوها سُرقت منهم.
- ♦ **بنى بغداد بين سنتي 145 و149هـ (762-766م)،** وسَمّاها "مدينة السلام". كانت مدينة مستديرة لها أربعة أبواب، وفي وسطها قصر الخليفة ذو القبة الخضراء. وموقعها على دجلة قرب الفرات جعلها ملتقى تجارة العالم.
- ♦ **اعتمد على البرامكة،** وهم أسرة فارسية من بلخ، في إدارة الدولة.

العصر الذهبي (132-232هـ)

٣

المهدي والهادي

كان المهدي لئيم السياسة، فأطلق السجناء وتصالح مع خصوم أبيه، وطارد الزنادقة. أما ابنه الهادي فحكم سنة واحدة ومات في ظروف غامضة.

هارون الرشيد (170-193هـ): قَمّة المجد

عهدُه هو الصورة التي يتخيلها الناس حين يذكرون بغداد وقصص ألف ليلة وليلة:

- ♦ **البرامكة في أوج سلطانهم:** يحيى بن خالد وزيراً، وابناه جعفر والفضل. ثم جاءت "نكبة البرامكة" سنة 187هـ، فُقُتل جعفر وسُجن الباقون فجأة. ولا يزال سببها الحقيقي موضع جدل بين المؤرخين.
- ♦ **علاقات دولية:** تبادل السفارات مع شارلمان ملك الفرنجة، وأهداه فيلاً وساعة مائية أدهشت أهل أوروبا.
- ♦ **حروب مع الروم:** حين نقض الإمبراطور نقفور الصلح، ردّ عليه الرشيد برسالته الشهيرة: "الجواب ما تراه لا ما تسمعه"، ثم خرج إليه بجيشه.
- ♦ **أنشئ أول مصنع للورق في بغداد،** وبدأت "خزانة الحكمة" التي ستصير بيت الحكمة.

لكن الرشيد ارتكب الخطأ نفسه الذي أضعف الأمويين: قسّم ولاية العهد بين ابنه الأمين والمأمون، وعلق وثيقة العهد في الكعبة لتكون ملزمة.

الأمين والمأمون: الحرب بين الأخوين

بعد موت الرشيد سنة 193هـ، حاول الأمين حرمان المأمون من حقه، فاندلعت حرب أهلية. حاصر قائد المأمون طاهر بن الحسين بغداد شهوراً، ودُمّرت أجزاء كبيرة منها، وقُتل الأمين سنة 198هـ.

المأمون (198-218هـ): الخليفة العالم

- ♦ ازدهر بيت الحكمة في عهده، وبلغت حركة الترجمة ذروتها، فُنقلت كتب الإغريق والفرس والهنود إلى العربية، وكان حنين بن إسحاق من أبرز المترجمين.
- ♦ وضع الخوارزمي علم الجبر في بيت الحكمة.
- ♦ أمر المأمون بقياس محيط الأرض في سهل سنجار.
- ♦ تبنّى مذهب المعتزلة، وفرض "المحنة"، أي امتحان العلماء في مسألة خلق القرآن. وكان أشهر من صمد فيها الإمام أحمد بن حنبل، الذي جُلد وسُجن في عهد المعتصم بعده.

إشعاع العصر الذهبي

العلوم	الفقه والحديث	الأدب واللغة
الخوارزمي في الجبر، الكندي في الفلسفة، الرازي في الطب، ثابت بن قرّة في الرياضيات	الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد. ثم البخاري ومسلم	سيبويه في النحو، الجاحظ في النثر، أبو نواس وأبو تمام في الشعر

المعتصم (218-227هـ): القرار الذي غيّر كل شيء

لم يعد المعتصم يثق بالعرب ولا بالخراسانيين، فاشترى آلاف المماليك الترك وجعلهم جيشه الخاص. ولما ضاق بهم أهل بغداد، بنى لهم مدينة جديدة هي سامراء سنة 221هـ/836م، وانتقلت إليها العاصمة.

وفي عهده كان فتح عمورية سنة 223هـ/838م. وتُروى قصة امرأة أسرها الروم فصاحت "وامعتصماه"، فجَهّز جيشاً لنجرتها. وخلّد أبو تمام هذا الفتح في قصيدته الشهيرة التي تبدأ بقوله: "السيف أصدق أنباءً من الكتب".

لكن الترك الذين جاء بهم المعتصم لحمايته سيصبحون سادة أبنائه.

عصر النفوذ التركي (232-334هـ)

٤

المتوكل ثم فوضى سامراء

أنهى المتوكل المحنة وأعاد المذهب السني إلى الواجهة. لكنه حاول تحجيم قادة الترك، فاغتالوه سنة 247هـ/861م بتواطؤ ابنه المنتصر. وبعدها بدأت "فوضى سامراء": تسع سنوات تداول فيها أربعة خلفاء، كان الترك يعيّنون الخليفة ويعزلونه ويقتلونه كما يشاؤون.

ثورة الزنج (255-270هـ)

ثار العبيد الأفارقة الذين يعملون في سباح جنوب العراق بقيادة علي بن محمد، ونهبوا البصرة. ودامت الثورة نحو خمس عشرة سنة حتى قضى عليها الموفق، أخو الخليفة المعتمد وصاحب السلطة الفعلية. ثم عادت العاصمة إلى بغداد سنة 279هـ/892م.

الدولة تتفكك من أطرافها

بينما كان المركز ضعيفاً، استقل الولاة والثوار بالأقاليم واحداً تلو الآخر. أغلبهم ظل يعترف بالخليفة اسماً، لكن الأموال والقرار صارت بأيديهم:

الدولة	الإقليم	البداية
الأمويون	الأندلس	138هـ / 756م
الرستميون	تاهرت في المغرب الأوسط (تيارت في الجزائر حالياً)	160هـ / 776م
الأدارسة	المغرب الأقصى	172هـ / 788م
الأغالبة	إفريقية (تونس)	184هـ / 800م
الطاهريون	خراسان	205هـ / 821م
الطولونيون	مصر والشام	254هـ / 868م
الفاطميون	إفريقية ثم مصر	297هـ / 909م

والفاطميون كانوا أخطر هؤلاء جميعاً، لأنهم لم يكتفوا بالاستقلال، بل أعلنوا خلافة شيعية إسماعيلية منافسة. وقامت دعوتهم أصلاً على قبيلة كتامة الأمازيغية في جبال شرق الجزائر. ثم أعلن عبد الرحمن الثالث الخلافة في قرطبة سنة 316هـ، فصار في العالم الإسلامي ثلاث خلافات في وقت واحد.

المقتدر والقرامطة

تولى المقتدر الخلافة وهو في الثالثة عشرة، فحكمت الحاشية والنساء والقادة باسمه. وفي عهده هاجم القرامطة مكة في موسم الحج سنة 317هـ/930م، وقتلوا الحجاج، واقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه إلى الأحساء، ولم يُعد إلا بعد اثنين وعشرين عاماً. ثم أنشأ الخليفة الراضي منصب "أمير الأمراء" سنة 324هـ، فسلم صاحبه الجيش والمال والإدارة. ومنذ تلك اللحظة صار الخليفة رسمياً مجرد رمز ديني.

العصر البويهي (334 - 447هـ)

دخل أحمد بن بويه بغداد سنة 334هـ/945م، وهو من الديلم، أهل جبال شمال إيران، وتلقب "معز الدولة". ثم خلع الخليفة المستكفي وسلم عينيه.

والمفارقة أن البويهيين كانوا شيعة، ومع ذلك أبقوا على الخلافة العباسية السنية. السبب سياسي: الخليفة العباسي الضعيف يمنحهم الشرعية أمام رعية أغلبها سني، أما الخليفة الفاطمي فكان سينافسهم على السلطة.

بلغت دولتهم ذروتها مع عضد الدولة، الذي بنى البيمارستان العضدي في بغداد. ثم حاول الخليفة القادر استعادة بعض الهيبة بإصدار "الاعتقاد القادري" دفاعاً عن عقيدة أهل السنة.

العصر السلجوقي (447-547هـ)

٦

طغرل بك: من منقذ إلى سيد جديد

السلجقة قبيلة تركية سنية من آسيا الوسطى. دخل زعيمهم طغرل بك بغداد سنة 447هـ/1055م، وأنهى حكم البويهيين، ونال من الخليفة لقب "السلطان".

وبعد ثلاث سنوات تمرد القائد التركي البساسيري، فخطب للخليفة الفاطمي على منابر بغداد سنة كاملة. فعاد طغرل وقتله وأعاد الخليفة القائم إلى عرشه.

ألب أرسلان وملكشاه ونظام الملك

♦ **معركة ملاذكرد** سنة 463هـ/1071م: هزم ألب أرسلان الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع وأسرّه. ففتحت الأناضول أمام الترك، وهو التحول الذي سيقود بعد قرون إلى قيام الدولة العثمانية.

♦ **الوزير نظام الملك** أسس المدارس النظامية، وأشهرها نظامية بغداد سنة 459هـ، ودرّس فيها الإمام الغزالي.

♦ **اغتيال نظام الملك** سنة 485هـ على يد الحشاشين، وهم الفرقة الإسماعيلية النزارية التي اتخذت من قلعة ألموت مقراً لها. ومات ملكشاه بعده بأسابيع، فتمزقت الدولة السلجوقية بين ورثته.

الحروب الصليبية

وصل الصليبيون إلى المشرق والسلجقة يتقاتلون فيما بينهم، فسقطت القدس سنة 492هـ/1099م. ولم تأت المقاومة من بغداد، بل من أمراء الأطراف: عماد الدين زنكي، ثم ابنه نور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبي.

وفي سنة 567هـ/1171م أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي في مصر. ثم انتصر في حطين واسترد القدس سنة 583هـ/1187م.

النهضة الأخيرة (547-656هـ)

٧

بعد موت السلطان السلجوقي مسعود، استعاد الخليفة المقتفي السيطرة على العراق، وصمد أمام حصار سلجوقي لبغداد سنة 552هـ.

ثم جاء الناصر لدين الله (575-622هـ)، وهو أطول الخلفاء العباسيين حكماً، إذ حكم نحو 47 سنة. كان سياسياً بارعاً:

♦ تحالف مع الخوارزميين حتى قُتل آخر سلاطين السلجقة في العراق سنة 590هـ.

♦ أعاد تنظيم "الفتوة" وجعل نفسه رأسها، ليربط بها الأمراء والنخب.

♦ أعاد للخلافة هيبة سياسية حقيقية في العراق.

ثم بنى الخليفة المستنصر المدرسة المستنصرية سنة 631هـ، ولا يزال مبناها قائماً في بغداد إلى اليوم.

٨ الكارثة: سقوط بغداد سنة 656هـ

كان آخر خلفاء بغداد، المستعصم بالله (640-656هـ)، ضعيفاً ومحاطاً ببلاط منقسم على نفسه. وفي الشرق كان المغول قد اجتاحت الدولة الخوارزمية.

1. سنة 654هـ دمر هولاكو، حفيد جنكيز خان، قلاع الحشاشين في الموت.
 2. طالب الخليفة بالخضوع وهدم أسوار بغداد، فردّ المستعصم بتهديد لم يكن يملك ما يسنده.
 3. في محرم 656هـ (يناير 1258م) حوصرت بغداد من كل الجهات.
 4. في صفر 656هـ (فبراير 1258م) سقطت المدينة واستُبيحت أسابيع عدة.
 5. قُتل الخليفة. وتقول الرواية المشهورة إنه لُف في بساط ورُفس بالخيول، لأن المغول كانوا يتجنبون إراقة دم الملوك.
- قدّرت المصادر القديمة القتلى بمئات الآلاف، وفي ذلك مبالغة على الأرجح، لكن المؤكد أنها كانت مذبحة هائلة. ودُمّرت المكتبات، ومنها بيت الحكمة. وتروي الأسطورة أن دجلة اسودّت من حبر الكتب الملقاة فيه.
- أما الوزير ابن العلقمي، فتتهمه مصادر سنية كثيرة بالتواطؤ مع المغول، لكن مؤرخين آخرين يشككون في هذه الرواية، فالمسألة لا تزال موضع جدل.
- انتهت بذلك الخلافة العباسية في العراق بعد 524 سنة هجرية، و37 خليفة.

٩ الخلافة الظلّ في القاهرة (659-923هـ)

بعد أن أوقف المماليك زحف المغول في عين جالوت سنة 658هـ/1260م، أراد السلطان الظاهر بيبرس شرعية دينية لحكمه. فاستقدم أميراً عباسياً نجا من المذبحة، وبايعه خليفةً في القاهرة سنة 659هـ/1261م.

استمرت هذه الخلافة نحو قرنين ونصف. كان الخليفة يقدّم السلطان المملوكي الحكم، ويظهر في المراسم الرسمية، لكنه لا يملك أي سلطة حقيقية.

وانتهت سنة 923هـ/1517م، حين فتح السلطان العثماني سليم الأول مصر، وأخذ الخليفة المتوكل على الله الثالث معه إلى إسطنبول. ثم صار العثمانيون لاحقاً يحملون لقب الخلافة، حتى ألغيت نهائياً سنة 1924م.

١٠ مقارنة: الأمويون والعباسيون

الأمويون	العباسيون
دمشق	بغداد، ثم سامراء، ثم بغداد
العاصمة	

الأمويون	العباسيون
عربي	أممي: فرس وترك وعرب
قبائل الشام العربية	الخراسانيون، ثم المماليك الترك
الفتوحات والتوسع	العلم والتجارة والحضارة
نحو 90 سنة	نحو 508 سنوات في العراق، و256 في القاهرة
الثورة العباسية	الغزو المغولي، ثم العثمانيون
طابع الدولة	
القوة العسكرية	
الأولوية	
المدة	
النهاية	

لماذا ضعفوا ثم سقطوا؟

II

1. الاعتماد على جيوش أجنبية مرتزقة: بدأ بالترك في عهد المعتصم، فصار الحراس أسياداً يعيّنون الخلفاء ويقتلونهم.
2. اتساع الدولة مع بطء الاتصالات، مما سهّل استقلال الولاة في الأطراف.
3. الصراعات على العرش، بدءاً من حرب الأمين والمأمون.
4. الانقسامات المذهبية: المحنة، والقرامطة، والخلافة الفاطمية المنافسة.
5. انهيار الاقتصاد: خراب أراضي السواد الزراعية في العراق، وثورة الزنج.
6. ضربة خارجية ساحقة هي الغزو المغولي، جاءت على دولة كانت أصلاً منهكة.



الدولة العثمانية

من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية في ثلاث قارات

699-1341 هـ · 1299-1922 م

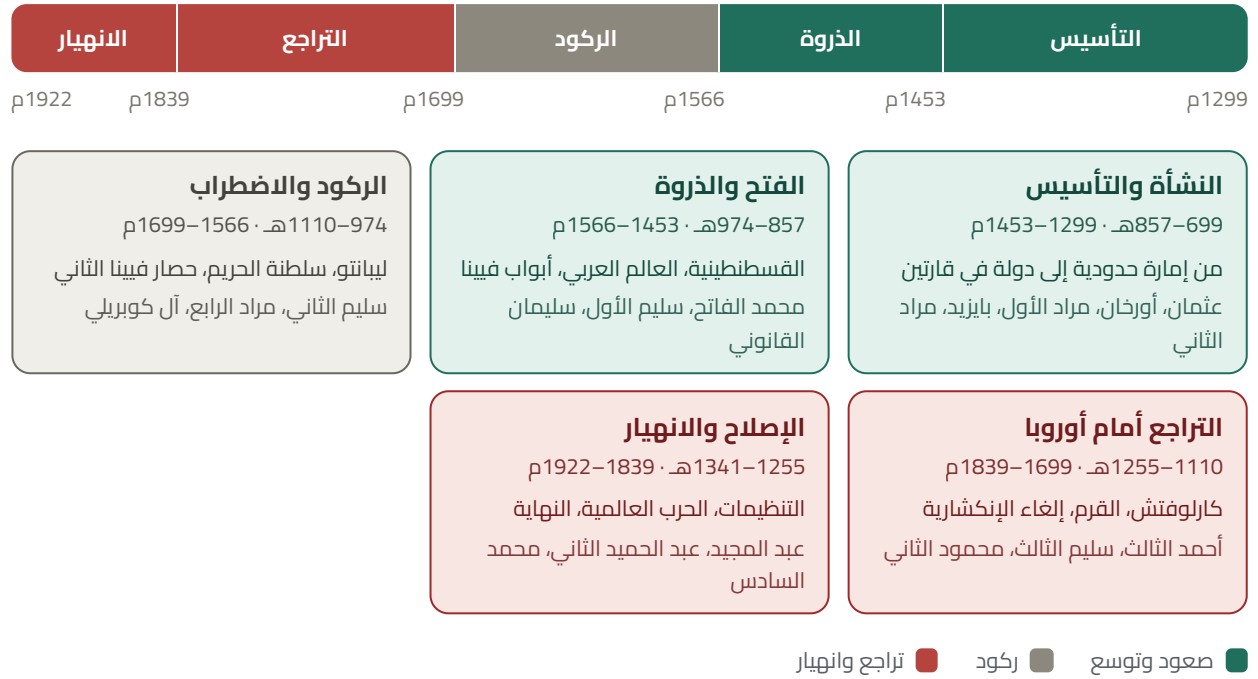
« أخذنا منكم قبرص فقطعنا ذراعكم، وأما أنتم فخلقتم لحيتنا، واللحية تنبت من جديد. »

الصدر الأعظم صقلي محمد باشا بعد ليبانتو، بتصرف

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|--|----|--|
| ١ | الجدور: قبيلة على الحدود | ٧ | الركود والاضطراب (974-1110 هـ) |
| ٢ | التأسيس (699-857 هـ) | ٨ | التراجع أمام أوروبا (1110-1255 هـ) |
| ٣ | الفتح الأكبر: محمد الفاتح والقسطنطينية | ٩ | الإصلاح و"الرجل المريض" (1255-1336 هـ) |
| ٤ | الدولة تدخل العالم العربي: سليم الأول | ١٠ | النهاية (1908-1924 م) |
| ٥ | سليمان القانوني: الذروة (926-974 هـ / 1520 - 1566 م) | ١١ | مقارنة بين الدول الثلاث |
| ٦ | كيف كانت الدولة تُدار؟ | ١٢ | لماذا ضعفت الدولة ثم سقطت؟ |

المراحل الخمس للدولة العثمانية



١ الجذور: قبيلة على الحدود

بعد أن هزم المغول سلاجقة الروم في معركة كوسه داغ سنة 641هـ/1243م، تفككت الأناضول إلى إمارات تركية صغيرة تسمى "البيليكات". وكانت إحداها إمارة صغيرة قرب بلدة سوغوت في شمال غرب الأناضول، على حدود الدولة البيزنطية مباشرة. يقودها أرطغرل، ثم ابنه عثمان، وتنتسب حسب الرواية التقليدية إلى قبيلة قايي من الأتراك الأوغوز. وقد كان موقع هذه الإمارة سرّ صعودها. فهي إمارة "ثغر" تواجه البيزنطيين، فاجتذبت المجاهدين والمغامرين وال دراويش من كل الأناضول.

٢ التأسيس (699-857هـ)

عثمان الأول: المؤسس

بدأ يوسّع إمارته على حساب البيزنطيين نحو سنة 699هـ/1299م، وهو التاريخ المعتمد تقليدياً لقيام الدولة. وتروي الأسطورة أنه رأى في منامه شجرة تخرج من صدره وتظلل العالم، ففسّر لها الشيخ إده بالي بأن الله سيعطيه وذريته ملكاً عظيماً، وزوجه ابنته. ومنه أخذت الدولة اسمها.

أورخان: من إمارة إلى دولة

- ♦ فتح بورصة سنة 726هـ/1326م وجعلها أول عاصمة، ثم فتح إزنيق.
- ♦ سك أول عملة عثمانية، وأسس أول مدرسة عثمانية في إزنيق.
- ♦ عبر جيشه إلى أوروبا لأول مرة، واستقر في غاليبولي سنة 1354م.

مراد الأول: قدم ثابتة في أوروبا

- ♦ فتح أدرنة ونقل إليها العاصمة، فصارت الدولة أوروبية بقدر ما هي آسيوية.
- ♦ نظم "الدوشيرمة" و"الإنكشارية"، وسيأتي شرحهما بعد قليل.
- ♦ انتصر على الصرب في معركة قوصوه سنة 791هـ/1389م، لكنه قُتل بعد المعركة على يد نبيل صربي، فكان أول سلطان عثماني يُقتل في ساحة الحرب.

بايزيد الأول "الصاعقة": الصعود ثم السقوط المدوي

- لُقّب "يلدرم" أي الصاعقة لسرعة حركة جيوشه. هزم حملة صليبية أوروبية كبرى في نيكوبوليس سنة 798هـ/1396م، وحاصر القسطنطينية.
- لكنه اصطدم بتيمورلنك، الفاتح المغولي التركي القادم من آسيا الوسطى، فهُزم هزيمة ساحقة في معركة أنقرة سنة 804هـ/1402م، وأُسر ومات في الأسر.

عهد الفترة: الدولة على حافة الزوال

- تقاتل أبناء بايزيد الأربعة على العرش عشر سنوات. ولم تنج الدولة إلا لأن محمد الأول جلبى أعاد توحيدها سنة 816هـ/1413م.
- ثم جاء ابنه مراد الثاني فأعاد بناء قوتها، وهزم حملة صليبية جديدة في معركة فارنا سنة 848هـ/1444م.

الفتح الأكبر: محمد الفاتح والقسطنطينية

٣

كانت القسطنطينية حلماً للمسلمين منذ عهد معاوية. وقد ورد حديث نبوي يبشّر بفتحها ويمدح أميرها وجيشه، وإن كان أهل الحديث يختلفون في درجة صحته. وتولى محمد الثاني الحكم وهو في التاسعة عشرة، وجعل فتحها هدف حياته.

الاستعداد

- ♦ بنى قلعة "روملي حصار" على مضيق البوسفور في أربعة أشهر، ليقطع عن المدينة أي إمداد من البحر الأسود.
- ♦ استعان بمهندس مجري اسمه أوربان، صنع له مدافع عملاقة لم يُر مثلاً.
- ♦ جمع جيشاً يُقدّر بنحو 80 ألف مقاتل، مقابل بضعة آلاف من المدافعين.

الحصار (53 يوماً)

1. بدأ الحصار في 6 أبريل 1453م، وأخذت المدافع تدك الأسوار ليلاً ونهاراً، والبيزنطيون يرممونها كل ليلة.
2. أغلق البيزنطيون مدخل القرن الذهبي، وهو الخليج المحيط بالمدينة، بسلسلة حديدية ضخمة، فعجز الأسطول العثماني عن دخوله.
3. فجاء الفاتح بفكرة مذهلة: نقل نحو سبعين سفينة براً، على ألواح خشبية مدهونة بالزيت والشحم، فوق التلال في ليلة واحدة، وأنزلها في القرن الذهبي خلف السلسلة. استيقظ البيزنطيون فوجدوا السفن داخل خليجهم.
4. في فجر الثلاثاء 20 جمادى الأولى 857هـ / 29 مايو 1453م كان الهجوم الأخير، فاقتحم الإنكشارية الأسوار.
5. قُتل الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر وهو يقاتل، وانتهت الإمبراطورية البيزنطية بعد أكثر من ألف عام.

ما بعد الفتح

- ♦ صارت المدينة عاصمة الدولة باسم "إسطنبول"، وتحولت كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد.
- ♦ منح الفاتح بطريك الأرثوذكس سلطة على شؤون رعيته الدينية، وهذه بداية "نظام المل".
- ♦ لُقّب نفسه "قيصر الروم"، أي وريث روما، وواصل فتوحاته في صربيا والبوسنة وطرابزون والقرم.
- ♦ أسس مدارس "الصحن الثمان" حول مسجده، فصارت أهم مؤسسة علمية في الدولة.

الدولة تدخل العالم العربي: سليم الأول

٤

سليم "الشجاع" (918-926هـ)

حكم ثماني سنوات فقط، لكنه ضاعف مساحة الدولة تقريباً:

1. معركة جالديران سنة 920هـ/1514م: هزم الشاه إسماعيل الصفوي، الذي كان قد فرض المذهب الشيعي على إيران، ونشر دعوته بين القبائل التركمانية في الأناضول. وتفوقت المدفعية العثمانية فيها على الفرسان الصفويين.
2. معركة مرج دابق قرب حلب سنة 922هـ/1516م: هزم المماليك وقُتل سلطانهم قانصوه الغوري، فدخلت الشام كلها تحت حكم العثمانيين.
3. معركة الريدانية قرب القاهرة سنة 923هـ/1517م: انتهت دولة المماليك، وشُنق آخر سلاطينهم طومان باي على باب زويلة. وبهذا صارت مصر والشام والحجاز عثمانية. وأرسل شريف مكة مفاتيح الحرمين إلى سليم، فلُقّب نفسه "خادم الحرمين الشريفين". وأخذ معه آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة إلى إسطنبول، كما رأينا في الفصل السابق.

المغرب العربي: الإخوة بربروس

في الوقت نفسه، كانت إسبانيا بعد سقوط غرناطة سنة 1492م تحتل الموانئ على السواحل المغاربية واحداً تلو الآخر، ومنها المرسى الكبير ووهران وبجاية.

- ♦ **عروج وخير الدين**، أخوان بحاران من جزيرة ليسبوس، صاروا يقودان الجهاد البحري ضد الإسبان. ودخل عروج مدينة الجزائر سنة 1516م، ثم قُتل قرب تلمسان سنة 1518م.
- ♦ فطلب أخوه خير الدين الدعم من السلطان سليم سنة 925هـ/1519م، ودخل في طاعته. فصارت الجزائر إيالة عثمانية، وحصل خير الدين على لقب "بيلرباي" وعلى قوة من الإنكشارية.
- ♦ نقلت سفن خير الدين آلاف الموريسكيين الفارين من محاكم التفتيش في إسبانيا إلى سواحل الجزائر.
- ♦ ثم أصبحت طرابلس عثمانية سنة 1551م، وتونس نهائياً سنة 1574م. أما المغرب الأقصى فبقي مستقلاً تحت حكم السعديين ثم العلويين.

بقيت الجزائر إيالة عثمانية أكثر من ثلاثة قرون، وتحولت مع الوقت إلى دولة شبه مستقلة يحكمها الدايات. وظل صراعها مع إسبانيا طويلاً، فلم تُستعد وهران نهائياً إلا سنة 1792م على يد الباي محمد الكبير. ثم انتهى الحكم العثماني فيها بالاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

سليمان القانوني: الذروة (926-974هـ / 1520-1566م)

حكم 46 سنة، وهو أطول السلاطين حكماً. يسمّيه الأوروبيون "العظيم"، ويسمّيه العثمانيون "القانوني".

الفتوحات على ثلاث جبهات

أوروبا	البحر	الشرق
فتح بلغراد (1521)، والانتصار في موهاكس (1526) الذي أسقط مملكة المجر، ثم حصار فيينا (1529) الذي فشل	فتح رودس من فرسان القديس يوحنا (1522)، وانتصار خير الدين بربروس في معركة بروزة (1538)، فصار المتوسط شبه بحيرة عثمانية	انتزاع بغداد والعراق من الصفويين (1534)، والوصول إلى الخليج والبحر الأحمر

وتحالف مع فرنسا ضد آل هابسبورغ، فكانت أول مرة تتحالف فيها دولة مسلمة مع دولة أوروبية كبرى بهذا الشكل.

الدولة والحضارة

- ♦ أصدر مع شيخ الإسلام أبي السعود أفندي قوانين شاملة تنظم الإدارة والضرائب والعقوبات، بما يوافق الشريعة.
- ♦ بلغ المعمار العثماني ذروته مع المعماري سنان، الذي بنى جامع السلمانية في إسطنبول، ثم جامع السلمية في أدرنة، الذي اعتبره سنان نفسه تحفته الكبرى.

لكن في عهده ظهرت بذور الضعف: صار للحريم نفوذ كبير في القصر، خاصة زوجته حُرَّم سلطان. وأمر بإعدام ابنه وولي عهده مصطفى سنة 1553م، فترك العرش لابن أقل كفاءة. ومات سليمان سنة 1566م في خيمته أثناء حصار قلعة سيكتوار في المجر.

كيف كانت الدولة تُدار؟

٦

النظام	كيف يعمل	ما الهدف منه
الدوشيرمة	جمع صبيان من الأسر المسيحية في البلقان، وتربيتهم مسلمين في القصر	صنع نخبة لا ولاء لها إلا للسلطان
الإنكشارية	أول جيش مشاة نظامي دائم في أوروبا، ومنهم من صار وزيراً أعظم	قوة عسكرية منضبطة بيد السلطان مباشرة
التيمار	يمنح الفارس دخل أرض زراعية مقابل الخدمة في الحرب	تمويل الجيش دون خزينة مركزية ضخمة
نظام الملل	كل طائفة دينية تدير شؤونها الدينية والقضائية بنفسها	تعايش شعوب وأديان كثيرة في دولة واحدة
الديوان وشيخ الإسلام	الوزير الأعظم يدير الحكم، وشيخ الإسلام يفتي في شرعية القرارات	التوازن بين السياسة والشريعة

الركود والاضطراب (974-1110هـ)

٧

بداية التصدع

- ♦ في عهد سليم الثاني، هُزم الأسطول العثماني أمام تحالف أوروبي في معركة ليبانتو سنة 979هـ/1571م. لكن الدولة أعادت بناء أسطولها في شتاء واحد. وقال الوزير الأعظم صقللي محمد باشا لسفير البندقية ما معناه: أخذنا منكم قبرص فقطعنا ذراعكم، وأما أنتم فحلقتم لحيتنا فقط، واللحية تنبت من جديد.
- ♦ منذ عهد الفاتح كان القانون يسمح للسلطان الجديد بقتل إخوته منعاً للحرب الأهلية، وبلغ ذلك ذروته حين قتل محمد الثالث تسعة عشر أخاً سنة 1595م. فاستبدلوا القتل بحبس الأمراء في جناح مغلق من القصر يسمى "القفص". فصار السلاطين يصلون إلى العرش وهم لم يعرفوا شيئاً عن العالم ولا عن الحكم.
- ♦ عُرفت تلك المرحلة بـ"سلطنة الحريم" حيث حكمت أمهات السلاطين وزوجاتهم من وراء الستار.
- ♦ فسد الإنكشارية، فتزوجوا وتاجروا وورثوا مناصبهم، وصاروا يعزلون السلاطين. وقتلوا السلطان الشاب عثمان الثاني سنة 1622م، لأنه حاول إصلاحهم.

سلطنة الحريم: هل حكمت النساء التركيات كل شيء؟ وهل كانت أول مرة؟

سؤال ممتاز، والجواب فيه مفاجأتان.

المفاجأة الأولى: معظمهم لم يكنّ تركيات أصلاً

كانت أغلب هؤلاء النساء جواري من أصول أجنبية، دخلن القصر صغيرات وتعلّمن فيه:

- ◆ **خُرّم سلطان**، زوجة سليمان القانوني: من روثينيا، أي غرب أوكرانيا حالياً.
- ◆ **صفية سلطان**: ألبانية الأصل على الأرجح. وكانت تراسل الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا وتتبادل معها الهدايا.
- ◆ **كوسم سلطان**، أقوى نساء تلك المرحلة: يونانية الأصل.
- ◆ **طرخان سلطان**: من شرق أوروبا.

كيف وصلن إلى السلطة؟

لم يكن ذلك بقانون، بل نتيجة لتغيّر النظام نفسه:

1. بعد إلغاء قتل الإخوة واعتماد "القفس"، صار السلاطين يصلون إلى العرش صغاراً أو بلا خبرة، وبعضهم كان مضطرب العقل مثل مصطفى الأول وإبراهيم. فصارت أم السلطان، "السلطانة الوالدة"، وصيةً على الحكم.
 2. توقف السلاطين عن قيادة الحملات بأنفسهم وبقوا في القصر، فانتقل مركز القرار إلى داخل القصر، حيث تملك الأم والزوجة أكبر نفوذ.
 3. صار منصب "السلطانة الوالدة" شبه رسمي، صاحبته تتقاضى أعلى راتب في القصر، وتعيّن الوزراء وتعزلهم، وتتحالف مع قادة الإنكشارية.
- بلغت الظاهرة ذروتها مع كوسم سلطان، التي كانت وصيةً على ابنها مراد الرابع حين تولى في الحادية عشرة، ثم على حفيدها محمد الرابع حين تولى في السادسة. وانتهى الأمر بأن قُتلت خنقاً سنة 1651م، في صراع على النفوذ مع كتنها طرخان. ثم كانت طرخان نفسها هي التي عيّنت كوبريلي محمد باشا وزيراً أعظم بصلاحيات كاملة سنة 1656م، فأنتهت تلك المرحلة.

لكن القول إنهن "حكمن كل شيء" فيه مبالغة. كنّ يحكمن عبر شبكة من الوزراء والخصيان وقادة الجند، لا وحدهن. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن هذه المرحلة لم تكن مجرد فساد، بل شكل جديد من الحكم ظهر حين توقف السلطان عن أن يكون قائداً عسكرياً. أما اسم "سلطنة الحريم" نفسه فقد أطلقه مؤرخ تركي سنة 1916م، بنبرة نقدية.

المفاجأة الثانية: لم تكن أول مرة أبداً، حتى عند العرب

المرأة	الدولة والعصر	نوع السلطة
الخيزران	العباسيون، عهد المهدي والهادي والرشيد	نفوذ واسع على زوجها ثم ابنيها، ويّتهمها بعض المؤرخين بأنها وراء موت ابنها الهادي
زبيدة	زوجة هارون الرشيد	ثروة ونفوذ هائلان، وأشهر أعمالها "عين زبيدة" لسقاية مكة، و"درب زبيدة" للحجاج بين العراق والحجاز
شعب "السيدة"	أم الخليفة العباسي المقتدر	حكمت فعلياً حين تولى ابنها صبيّاً، وعيّنت قهرمانتها ثُم لل نظر في المظالم، أي محكمة الشكاوى
ست الملك	الفاطميون في مصر	وصية على ابن أخيها الظاهر، وحكمت مصر فعلياً بين 1021 و1023م
ضبح	أمويو الأندلس	أم الخليفة هشام المؤيد، تحالفت مع المنصور بن أبي عامر ثم أقصاها
أروى الصليحية	الدولة الصليحية في اليمن	ملكة حاكمة باسمها نحو نصف قرن (حوالي 1067-1138م)
شجرة الدر	مصر، سنة 648هـ/1250م	سلطانة رسمياً، شكّت النقود باسمها، وأدارت الحرب ضد حملة لويس التاسع الصليبية

ومن طرائف قصة شجرة الدر أن الخليفة العباسي المستعصم أرسل إلى أمراء مصر يسخر منهم بما معناه: إن لم يكن عندكم رجل يحكمكم، فأخبرونا نرسل لكم واحداً. وهو نفسه الخليفة الذي سقطت بغداد في عهده بعد ثمانين سنوات. وحتى في الدول التركية قبل العثمانيين، كان للنساء دور سياسي معروف. منهن ترکان خاتون زوجة السلطان السلجوقي ملكشاه، ورضية سلطنة التي حكمت دلهي باسمها في القرن الثالث عشر. الجديد عند العثمانيين إذن لم يكن الظاهرة نفسها، بل طول مدتها، نحو قرن كامل، وتحولها إلى مؤسسة لها منصب ورواتب وتقاليده.

محاولات الإنقاذ

- ◆ استعاد مراد الرابع بغداد من الصفويين سنة 1638م، وفرض الأمن بقسوة شديدة.
- ◆ تولى آل كوبريلي منصب الوزير الأعظم أباً عن ابن ابتداءً من سنة 1656م، فأعادوا الانضباط وفتحوا جزيرة كريت.

فيينا 1683: الضربة القاضية

حاصر الوزير الأعظم قره مصطفى باشا فيينا للمرة الثانية سنة 1094هـ/1683م. لكن جيشاً أوروبياً بقيادة الملك البولندي يان سويسكي باغت العثمانيين وهزمهم هزيمة كبيرة. ثم تبعها حرب طويلة انتهت بمعاهدة كارلوفتش سنة 1110هـ/1699م،

فخسرت الدولة المجر. وكانت أول مرة توقّع فيها على خسارة أراضٍ واسعة. ومنذ ذلك اليوم انتقلت من الهجوم إلى الدفاع.

٨ التراجع أمام أوروبا (1110-1255هـ)

- ◆ **عصر الخزامي (1718-1730):** مرحلة ترف وانفتاح على الثقافة الأوروبية. وفيه أنشأ إبراهيم متفرقة أول مطبعة عثمانية بالحروف العربية سنة 1727م، أي بعد نحو ثلاثة قرون من مطبعة غوتنبرغ.
- ◆ **معاهدة كوتشوك كاينارجيه سنة 1774م:** هزيمة كبيرة أمام روسيا، استقلت بعدها القرم ثم ضمتها روسيا سنة 1783م. وصارت روسيا تدّعي حق حماية الرعايا الأرثوذكس داخل الدولة. ومن طريف هذه المعاهدة أن السلطان أكد فيها صفته "خليفة للمسلمين"، ليحتفظ بنفوذ ديني على مسلمي القرم.
- ◆ **السلطان سليم الثالث** أنشأ جيشاً حديثاً على الطريقة الأوروبية سمّاه "النظام الجديد"، فثار عليه الإنكشارية وعزلوه ثم قتلوه سنة 1808م.
- ◆ **نابليون** احتل مصر سنة 1798م، فظهرت هشاشة الدولة أمام أوروبا الحديثة.
- ◆ **محمد علي باشا**، ضابط ألباني في الجيش العثماني، استولى على حكم مصر سنة 1805م، وبنى دولة حديثة شبه مستقلة. ثم حارب السلطان نفسه وهزمه مرتين، ولم يتوقف إلا بتدخل أوروبي.
- ◆ **محمود الثاني** ألغى الإنكشارية سنة 1826م، بعد أن قصف ثكناتهم بالمدافع، وسمّى ذلك "الواقعة الخيرية". ثم بنى جيشاً حديثاً.
- ◆ استقلت اليونان سنة 1830م، وفي السنة نفسها احتلت فرنسا الجزائر.

٩ الإصلاح و"الرجل المريض" (1255-1336هـ)

التنظيمات

بدأت سنة 1839م بمرسوم كلخانة في عهد السلطان عبد المجيد الأول، ودامت نحو أربعين سنة. ساوت بين الرعايا جميعاً أمام القانون بغض النظر عن الدين، ونظمت الضرائب والتجنيد، وأنشأت مدارس ومحاكم على الطراز الأوروبي.

وتحالفت الدولة مع بريطانيا وفرنسا ضد روسيا في حرب القرم (1853-1856) وانتصرت. لكن القيصر الروسي كان قد سمّاها "رجل أوروبا المريض"، فالتصق بها الوصف. والأخطر أنها صارت تقترض من البنوك الأوروبية لتمويل الإصلاحات والحروب، حتى أعلنت إفلاسها سنة 1875م، وصارت ديونها تحت إدارة لجنة أوروبية.

عبد الحميد الثاني (1293-1327هـ / 1876-1909م)

من أكثر السلاطين إثارة للجدل:

- ◆ أعلن أول دستور عثماني وافتتح البرلمان سنة 1876م، ثم علّقه بعد سنتين وحكم حكماً فردياً ثلاثين سنة.

- ♦ خسر في حرب 1877-1878م أمام روسيا، ففقد معظم البلقان في مؤتمر برلين. وضاعت تونس لفرنسا سنة 1881م، واحتلت بريطانيا مصر سنة 1882م.
- ♦ تبنّى سياسة "الجامعة الإسلامية" ليوحد المسلمين حول الخلافة، وبنى سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة المنورة بتبرعات المسلمين من أنحاء العالم.
- ♦ رفض عروض تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، الذي عرض عليه سداد ديون الدولة مقابل السماح بالاستيطان اليهودي في فلسطين.
- ♦ عزلته جمعية "الاتحاد والترقي" سنة 1909م، وهي حركة ضباط قومية تُعرف بـ "تركيا الفتاة"، بعد أن أعادت العمل بالدستور سنة 1908م.

النهاية (1908-1924م)

١٠

1. خسرت الدولة ليبيا أمام إيطاليا (1911-1912م)، ثم كل ما تبقى لها تقريباً في أوروبا خلال حروب البلقان (1912-1913م).
2. دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا في نوفمبر 1914م، بقرار من قادة الاتحاد والترقي.
3. انتصرت انتصاراً كبيراً في معركة جناق قلعة (غاليبولي) سنة 1915م، وصدّت البريطانيين والفرنسيين عن إسطنبول. وبرز فيها ضابط شاب اسمه مصطفى كمال.
4. في السنة نفسها، رُحِّل الأرمن من الأناضول قسراً، ومات منهم عدد هائل في المجازر وطرق الترحيل. وهي مأساة يصنّفها كثير من المؤرخين والدول إبادة جماعية، بينما ترفض تركيا هذا الوصف.
5. سنة 1916م أعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى بدعم بريطاني. وفي الوقت نفسه، كانت بريطانيا وفرنسا قد تقاسمتا المشرق العربي سراً في اتفاقية سايكس بيكو.
6. سنة 1918م استسلمت الدولة في هدنة مودروس، واحتل الحلفاء إسطنبول.
7. سنة 1920م فُرضت معاهدة سيفر، التي مرّقت ما بقي حتى الأناضول نفسها.
8. قاد مصطفى كمال حرب الاستقلال التركية من أنقرة، وهزم اليونانيين سنة 1922م.
9. ألغى البرلمان في أنقرة السلطنة في 1 نوفمبر 1922م، فغادر آخر السلاطين محمد السادس وحيد الدين إسطنبول على متن سفينة بريطانية.
10. أُعلنت الجمهورية التركية في 29 أكتوبر 1923م.
11. أُلغيت الخلافة نهائياً في 3 مارس 1924م، ونُفي آخر الخلفاء عبد المجيد الثاني وجميع أفراد الأسرة العثمانية. وهكذا انتهت دولة دامت نحو 623 سنة، وتعاقب عليها 36 سلطاناً.

مقارنة بين الدول الثلاث

١١

العثمانيون	العباسيون	الأمويون	العاصمة
بورصة، ثم أدرنة، ثم إسطنبول	بغداد، ثم سامراء	دمشق	
ترك أوغوز	عرب هاشميون	عرب من قريش	أصل الأسرة
الجهاد، ثم حماية الحرمين ولقب الخلافة	القرابة من النبي ﷺ	البيعة والغلبة	مصدر الشرعية
الإنكشارية والفرسان	الخراسانيون، ثم الترك	قبائل الشام	القوة العسكرية
الفتوحات في أوروبا وتنظيم الدولة	العلم والحضارة	الفتوحات وتعريب الدولة	أبرز ما تميزت به
نحو 623 سنة	نحو 508 سنوات في العراق	نحو 90 سنة	المدة
الحرب العالمية الأولى وقيام تركيا الحديثة	الغزو المغولي	الثورة العباسية	النهاية

لماذا ضعفت الدولة ثم سقطت؟

١٢

1. توقف الفتوحات: كان الاقتصاد والجيش مبنيين على غنائم التوسع ونظام التيمار، فلما توقف التوسع اختل كل شيء.
2. تحوّل طرق التجارة: اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة 1498م، فتجاوزت التجارة العالمية الشرق الأوسط. وتدفقت فضة أمريكا على أوروبا، فسببت تضخماً حاداً أضعف العملة العثمانية.
3. نظام "القفس" أنتج سلاطين بلا خبرة، بينما انتقلت السلطة إلى الحريم والوزراء.
4. الإنكشارية تحولوا من نخبة الجيش إلى أكبر عائق أمام الإصلاح.
5. فجوة علمية وتقنية متزايدة مع أوروبا الحديثة.
6. صعود القوميات في القرن التاسع عشر، عند شعوب البلقان أولاً، ثم عند العرب والترك أنفسهم.
7. الديون والامتيازات الأجنبية، التي جعلت اقتصاد الدولة في يد أوروبا.
8. وأخيراً، الدخول في الحرب العالمية الأولى إلى الجانب الخاسر.



الكتاب الثاني

وَصَّةُ الْعَالَمِ وَالْعُلَمَاءِ

الرحلة نفسها من جديد، لكن من حلقات المساجد والمكتبات والمراسد، لا من قصور
الخلفاء

الفصل الخامس

العصر الذهبي

132-300 هـ تقريباً · 750-912 م

الفصل الرابع

ولادة العلوم

القرن الأول الهجري · القرن السابع والثامن للميلاد

الفصل السابع

بين الصليبيين والمغول

القرنان السادس والسابع الهجريان · القرنان 12-13 م

الفصل السادس

عصر الموسوعيين

القرنان الرابع والخامس الهجريان · القرنان 10-11 م

الفصل التاسع

العصر العثماني ومفترق الطرق

القرون 9-12 هـ · القرون 15-18 م

الفصل الثامن

عصر المماليك وابن خلدون

القرون 7-9 هـ · القرون 13-15 م

الفصل العاشر

النهضة والإصلاح

1700-1940 م



ولاية العلوم

من الصحابة إلى نهاية العصر الأموي

القرن الأول الهجري · القرن السابع والثامن للميلاد

« إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم. »

محمد بن سيرين

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|--|---|----------------------------|
| ١ | المنطلق: المسجد النبوي أول مدرسة | ٥ | جيل التابعين |
| ٢ | أول مشروع علمي في التاريخ الإسلامي: جمع القرآن | ٦ | علوم وُلدت في العصر الأموي |
| ٣ | علماء الصحابة | ٧ | العالم والسلطان |
| ٤ | الأمصار تصبح مدارس | ٨ | الشعر والأدب |
| | | ٩ | البذور جاهزة |

في القصة السياسية رأينا الخلفاء والمعارك. أما هنا فنرى الوجه الآخر: حلقات المساجد، حيث كان يُصنع شيء سيعيش أطول من كل الدول.

◆ سلاسل انتقال العلم: من الصحابة إلى التابعين، ثم إلى أئمة المذاهب والعلوم



■ الصحابة □ التابعون وتلاميذهم ■ الأئمة في العصر العباسي

١ المنطلق: المسجد النبوي أول مدرسة

كان النبي ﷺ هو المعلم الأول، والمسجد هو المدرسة. وكان من الصحابة "أهل الصُّفَّة"، وهم فقراء يقيمون في المسجد ويتفرغون للتعليم. وكانت الكتابة نادرة في المجتمع العربي، فاتخذ النبي ﷺ "كتاب الوحي"، وأمر زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود وكتابتهم ليكتب له رسائله، فتعلمها في نحو أسبوعين حسب الرواية.

٢ أول مشروع علمي في التاريخ الإسلامي: جمع القرآن

المرحلة الأولى: أبو بكر

في معركة اليمامة سنة 12هـ قُتل عدد كبير من حفاظ القرآن. فخاف عمر بن الخطاب أن يضيع، وأقنع أبا بكر بجمعه في مصحف واحد. وكُلّف بذلك زيد بن ثابت، فكان يجمع الآيات من الرقاع والعظام وصدور الرجال، ولا يقبل آية إلا بشاهدين.

المرحلة الثانية: عثمان

نحو سنة 25هـ، كان الصحابي حذيفة بن اليمان يقاتل في أرمينيا وأذربيجان، فرأى جنود الشام والعراق يختلفون في قراءة القرآن ويخطئ بعضهم بعضاً. فعاد إلى عثمان وقال له ما معناه: أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كما اختلف اليهود

والنصارى.

فشكّل عثمان لجنة يرأسها زيد بن ثابت، فنسخت المصحف نسخاً موحدة، أرسلت إلى مكة والبصرة والكوفة والشام، وبقيت نسخة في المدينة. ومع كل نسخة أرسل قارئاً يعلم الناس.

علماء الصحابة

٣

الصحابي	مكانه	اختصاصه	ما تركه
عبد الله بن عباس (ت 68هـ)	مكة	التفسير	لقّب "حبر الأمة" و"ترجمان القرآن"، وأسس مدرسة التفسير في مكة
عبد الله بن مسعود (ت 32هـ)	الكوفة	القراءة والفقہ	أسس مدرسة الكوفة التي خرج منها مذهب أبي حنيفة
زيد بن ثابت (ت 45هـ)	المدينة	القرآن والفرائض	قاد جمع القرآن مرتين، وكان المرجع في علم المواريث
عائشة أم المؤمنين (ت 58هـ)	المدينة	الحديث والفقہ	روت أكثر من ألفي حديث، وكان كبار الصحابة يسألونها، وكانت تصحح أخطاءهم
أبو هريرة (ت 59هـ تقريباً)	المدينة	الحديث	أكثر الصحابة رواية، بأكثر من خمسة آلاف حديث
عبد الله بن عمر (ت 73هـ)	المدينة	الحديث والسنة	اشتهر بشدة تحريه في اتباع السنة، وخرج من مدرسته مولاه نافع
علي بن أبي طالب (ت 40هـ)	الكوفة	القضاء	اشتهر بأنه أقضى الصحابة، وثنسب إليه بداية فكرة النحو

قصتان عن ابن عباس

♦ كان شاباً صغيراً حين مات النبي ﷺ، فقرر أن يجمع العلم من كبار الصحابة. فكان يذهب إلى بيت الصحابي ليسأله عن حديث، فيجده نائماً وقت القيلولة، فيتوسد رداءه عند بابه والريح تسفي عليه التراب حتى يخرج. فإذا رآه الصحابي قال له: يا ابن عم رسول الله، لماذا لم ترسل إليّ فأتيك؟ فيقول: أنا أحق أن أتيك.

♦ كان عمر بن الخطاب يُدخله مجلس كبار الصحابة من أهل بدر وهو شاب، فاعترض بعضهم. فسألهم عمر يوماً عن معنى سورة النصر، فقالوا إنها أمر بالحمد والاستغفار عند الفتح. فقال ابن عباس إنها إعلامٌ بقرب أجل النبي ﷺ. فقال عمر إنه لا يعلم منها إلا ما قال ابن عباس.

وكان ابن عباس أول من استعمل الشعر الجاهلي لشرح الكلمات الغريبة في القرآن، وهي فكرة ستصبح منهجاً كاملاً في التفسير واللغة.

حين فُتحت البلاد، أرسل عمر بن الخطاب كبار الصحابة إلى المدن الجديدة معلمين. وكتب إلى أهل الكوفة أنه أرسل إليهم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً، وأنه آثرهم بآبن مسعود على نفسه.

وهكذا صارت كل مدينة مدرسة لها شيوخها وتلاميذها، كما يُظهر المخطط في أول الفصل. وظهر الفرق بين منهجين سيطبعان الفقه الإسلامي كله:

أهل الحديث (المدينة)	أهل الرأي (الكوفة)
المدينة مدينة النبي ﷺ والسنة فيها حاضرة في حياة الناس	الكوفة مدينة جديدة، فيها شعوب ومشكلات لم تُعرف من قبل
يعتمدون على الحديث وعمل أهل المدينة	يعتمدون على القياس والاستنباط من النصوص
يكرهون الإفتاء في مسائل لم تقع بعد	يفترضون المسائل قبل وقوعها ويستعدون لها

التابعون هم من تعلموا على يد الصحابة. وهم الجيل الذي حوّل العلم من ذاكرة شخصية إلى تقاليد علمية منظمة.

سعيد بن المسيّب (ت 94هـ): سيد التابعين

فقيه المدينة الأول، وأحد "الفقهاء السبعة" الذين كانت تدور عليهم الفتوى فيها. طلب الخليفة عبد الملك بن مروان ابنته زوجة لابنه الوليد، فرفض. ثم زوجها لتلميذ فقير اسمه أبو وداعة، وأخذها إليه بنفسه في الليلة نفسها. ولما رفض أن يبايع للوليد وسليمان ولاة للعهد، جُلد وطُيف به في الأسواق، فلم يتراجع.

الحسن البصري (ت 110هـ)

إمام البصرة في الزهد والوعظ، وكانت مواعظه تُحفظ وتُتناقل لبلاغتها. انتقد الحجاج بن يوسف علناً، واختفى منه سنوات. وفي حلقة بدأ أول خلاف كلامي منظم، كما سنرى بعد قليل.

محمد بن سيرين (ت 110هـ): مولد علم الإسناد

كان المسلمون في البداية يروون الحديث دون أن يسأل أحد عن مصدره. لكن بعد الفتنة الكبرى ظهر الكذب على النبي ﷺ لأغراض سياسية ومذهبية. فقال ابن سيرين كلمته الشهيرة:

« إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم. »

وثرى عنه أيضاً عبارة تلخص الانقلاب كله: كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمّوا لنا رجالكم.

ومن هنا وُلد علم الإسناد، أي سلسلة الرواة، ثم علم الرجال الذي يدرس سيرة كل راوٍ وأمانته وحفظه. وهو منهج نقد تاريخي لم يكن له مثيل في الحضارات السابقة.

سعيد بن جبير (ت 95هـ): العالم الذي واجه الحجاج

من أبرز تلاميذ ابن عباس. شارك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، ثم اختفى سنوات حتى قُبض عليه. وتروي المصادر حواراً طويلاً بينهما قبل إعدامه، رفض فيه سعيد أن يتراجع أو يتملق. ومات الحجاج بعده بأشهر قليلة.

عطاء بن أبي رباح (ت 114هـ): مفتي مكة

كان مولى أسود البصرة، وصار مفتي مكة الأول في عصره. وثرى قصة أن الخليفة سليمان بن عبد الملك جلس بين يديه في الحج يسأله عن المناسك، ثم قال لأبنائه ما معناه: تعلّموا العلم، فلن أنسى ذلّنا بين يدي هذا العبد الأسود.

مفارقة كبرى: الحكم عربي، والعلم للموالي

في القصة السياسية رأينا أن الأمويين ميّزوا العرب على الموالي. لكن في عالم العلم انقلب الأمر. وثرى قصة أن عبد الملك بن مروان سأل الإمام الزهري عن سادة العلم في كل مدينة: مكة، اليمن، مصر، الشام، الجزيرة، خراسان، البصرة. وفي كل مرة كان الجواب: من الموالي. حتى وصل إلى الكوفة، فقال الزهري: إبراهيم النخعي، وهو من العرب. فارتاح عبد الملك وقال إن الموالي سيسودون العرب حتى يُخطب لهم على المنابر.

علوم وُلدت في العصر الأموي

٦

العلم	المؤسس	ماذا حدث
النحو	أبو الأسود الدؤلي	وضع أسس الإعراب ونقط الحركات
نقط الحروف	نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر	ميّز الباء من التاء والشاء بالنقاط
تدوين الحديث	عمر بن عبد العزيز والزهري	أول جمع رسمي للسنة في الكتب
الإسناد	ابن سيرين وجيله	نقد الرواة والتحقق من مصادر الحديث
التفسير	ابن عباس ثم مجاهد	تفسير القرآن آيةً آيةً
السيرة والمغازي	عروة بن الزبير ثم الزهري	جمع أخبار حياة النبي ﷺ وغزواته
علم الكلام	الحسن البصري وواصل بن عطاء	النقاش العقلي في مسائل العقيدة
الترجمة والكيمياء	خالد بن يزيد بن معاوية	أول محاولات نقل علوم الإغريق

النحو: قصة أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ)

مع دخول الشعوب في الإسلام، بدأ اللحن، أي الخطأ في الإعراب، يتسرب إلى اللغة وحتى إلى قراءة القرآن. وتُروى قصة أن ابنة أبي الأسود قالت له يوماً: "ما أحسنُ السماء!"، بضم النون، وهي تقصد التعجب. ففهم أبوها أنها تسأله عن أحسن شيء في السماء، فقال: نجومها. فقالت: لم أسأل، بل أتعجب. فقال لها: قولي "ما أحسنُ السماء!" بالفتح. وأدرك أن الخطأ صار يدخل حتى إلى بيوت العرب.

فوضع أسس النحو، وتقول الرواية إن علي بن أبي طالب هو الذي أعطاه الفكرة الأولى. ثم نقط المصحف نقط الإعراب: كان يقرأ ويقول لكتابه: إذا فتحْتُ فمي فضع نقطة فوق الحرف، وإذا ضممته فضع نقطة أمامه، وإذا كسرتة فضعها تحته. وكانت هذه النقاط تُكتب بلون أحمر مختلف عن لون الكتابة.

نقط الحروف: ثورة صغيرة في الكتابة

كانت الحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء تُكتب بشكل واحد بلا نقاط. فكلف الحجاج بن يوسف تلميذ أبي الأسود، نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، بوضع النقاط التي تميزها. وهي النقاط التي نستعملها حتى اليوم.

تدوين الحديث: قرار عمر بن عبد العزيز

خاف عمر بن عبد العزيز أن يضيع الحديث بموت العلماء، فكتب إلى عالم المدينة أبي بكر بن حزم يأمره بجمع حديث رسول الله ﷺ وكتابته. وكان ابن شهاب الزهري (ت 124هـ) أبرز من نفذ هذا المشروع، فلُقّب بأول من دَوّن العلم تدويناً رسمياً. لكن الزهري عمل قريباً من بلاط الأمويين، فانتقده بعض العلماء، وهذا يقودنا إلى سؤال سيرافق القصة كلها: هل يقترب العالم من السلطان أم يبتعد عنه؟

ولادة علم الكلام: "اعتزل عنا"

بعد الحروب الأهلية، طُرح سؤال صعب: ما حكم المسلم الذي يرتكب كبيرة؟ قال الخوارج إنه كافر، وقال المرجئة إنه مؤمن ونترك أمره إلى الله.

وفي حلقة الحسن البصري، قال تلميذه واصل بن عطاء (ت 131هـ) إن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثم اعتزل الحلقة وجلس إلى عمود آخر في المسجد يشرح رأيه. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. ومن هنا جاء اسم "المعتزلة"، الذين سيصبحون في العصر العباسي تيار المأمون الرسمي.

وظهرت في الوقت نفسه "القدرية"، الذين قالوا إن الإنسان يخلق أفعاله بإرادته الحرة. وقد دفع قاداتهم الثمن: قُتل معبد الجهني، ثم أعدم الخليفة هشام بن عبد الملك غيلانَ الدمشقي.

أمير أموي يبحث عن الكيمياء: خالد بن يزيد (ت نحو 85هـ)

هو حفيد معاوية، الذي حُرّم من الخلافة حين انتقلت إلى بني مروان. فأنصرف إلى العلم، وتقول المصادر القديمة إنه استقدم علماء من الإسكندرية ليترجموا له كتب الكيمياء والطب والنجوم من اليونانية، فكانت أول ترجمة في الإسلام. وإن كان بعض

المؤرخين المعاصرين يشككون في نسبة كتب الكيمياء إليه. وفي الفترة نفسها ترجم طبيب من البصرة اسمه ماسرجويه كتاباً طبياً يونانياً إلى العربية.

العالم والسلطان

٧

علماء واجهوا السلطة	علماء اقتربوا منها
سعيد بن المسيب: جلد لرفضه البيعة لولاية العهد	الزهري: خدم بلاط الأمويين ونقّذ مشروع تدوين الحديث
سعيد بن جبير: أعدمه الحجاج	رجاء بن حيوة: مستشار الخلفاء، وصاحب فكرة استخلاف عمر بن عبد العزيز
الحسن البصري: انتقد الحجاج واختفى منه	
غيلان الدمشقي: أُعدم في عهد هشام	

وفي الوسط يقف عمر بن عبد العزيز، الخليفة الذي كان هو نفسه عالماً، فجمع بين الطرفين.

الشعر والأدب

٨

ازدهر الشعر في العصر الأموي ازدهاراً كبيراً. اشتهرت "النقائض" بين جرير والفرزدق، وهي معارك شعرية دامت عشرات السنين، يرد فيها كل منهما على الآخر بقصيدة على الوزن والقافية نفسيهما، والناس يتابعونها كما نتابع اليوم المنافسات الكبرى. وكان الأخطل، وهو شاعر نصراني، شاعر البلاط الأموي.

وظهر "الغزل العذري" في بوادي الحجاز، وهو شعر الحب العفيف الذي يبقى فيه العاشق وفيّاً لحبيبة واحدة حتى الموت، كما في قصص جميل بثينة، وقيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلى.

البذور جاهزة

٩

مع نهاية العصر الأموي، كانت كل البذور قد زُرعت:

- ♦ أبو حنيفة، المولود سنة 80هـ، كان يدرّس في الكوفة.
- ♦ مالك بن أنس، المولود سنة 93هـ، كان قد بدأ يجلس للتدريس في المدينة.
- ♦ الخليل بن أحمد، المولود سنة 100هـ، كان شاباً في البصرة.
- ♦ الكتابة منقوطة ومشكولة، والإسناد منهج قائم، والعربية لغة الإدارة.

وفي العصر العباسي ستنفجر كل هذه البذور دفعة واحدة.



العصر الذهبي

الأئمة الأربعة، وبيت الحكمة، وعلوم بغداد

132-300 هـ تقريباً · 750-912 م

« العلم يؤتى ولا يأتي. »

الإمام مالك بن أنس لهارون الرشيد

في هذا الفصل

- | | |
|---|---------------------------------|
| ١ | لماذا انفجر العلم في بغداد؟ |
| ٢ | الأئمة الأربعة: سلسلة واحدة |
| ٣ | العصر الذهبي لتدوين السنة |
| ٤ | اللغة: معركة البصرة والكوفة |
| ٥ | الترجمة وبيت الحكمة |
| ٦ | العلوم |
| ٧ | التاريخ والأدب |
| ٨ | التصوف المبكر |
| ٩ | المحنة: من يملك السلطة الدينية؟ |

أعمار أبرز علماء العصر العباسي الذهبي: من عاصر من؟



لماذا انفجر العلم في بغداد؟

ما زُرِع في العصر الأموي نما فجأة في العصر العباسي، لأسباب اجتمعت كلها في وقت واحد:

السبب	ماذا يعني
الورق	انتقلت صناعته من آسيا الوسطى، وأنشئ أول مصنع للورق في بغداد سنة 178 هـ. فصار الكتاب رخيصاً بعد أن كان يُكتب على الرق الغالي
بغداد	مدينة ضخمة على طرق التجارة بين الهند والصين وفارس والبحر المتوسط، تتلاقى فيها البضائع والأفكار
تنوع الشعوب	فرس، وسريان نصاري، وصابئة من حرّان، وهنود، ويهود، يحمل كل منهم تراثاً علمياً قديماً
لغة مشتركة	صارت العربية لغة الإدارة والعلم، فاجتمع فيها كل هذا التراث
الرعاية	خلفاء ووزراء وأغنياء ينفقون بسخاء على الكتب والعلماء

الأئمة الأربعة: سلسلة واحدة

٢

المدّهِش أن الأئمة الأربعة ليسوا مدارس منفصلة، بل سلسلة واحدة من الشيوخ والتلاميذ. فمالك أستاذ الشافعي، والشافعي أستاذ أحمد بن حنبل، والشافعي درس على محمد بن الحسن الشيباني، تلميذ أبي حنيفة.

أبو حنيفة النعمان (80-150هـ): فقيه العقل

كان تاجر حرير في الكوفة، وهذه التجارة جعلته قريباً من مشكلات الناس الحقيقية. لم يكن يُعلي آراءه على تلاميذه، بل يطرح المسألة ويناقشها معهم أياماً حتى يتفقوا. واعتمد على القياس والاستحسان ليجيب عن مسائل جديدة لم يرد فيها نص صريح. وعرض عليه المنصور منصب القضاء فرفض، وتذكر روايات أنه سُجن وضُرب بسبب ذلك، ومات في السجن.

لم يكتب أبو حنيفة كتبه بنفسه، بل دَوّن مذهبه تلميذاه:

- ♦ **أبو يوسف:** أول من لُقّب "قاضي القضاة"، وكتب لهارون الرشيد "كتاب الخراج" عن نظام الضرائب.
- ♦ **محمد بن الحسن الشيباني:** كتب "السَّيَر"، الذي يعدّه كثير من الباحثين من أوائل الكتب في القانون الدولي، لأنه ينظم الحرب والسلم والمعاهدات والعلاقة بغير المسلمين.

مالك بن أنس (93-179هـ): إمام دار الهجرة

لم يغادر المدينة طوال حياته إلا للحج. وكتابه "الموطأ" من أقدم كتب الحديث والفقه المدونة. اشتهر بهيبته الشديدة، فكان يغتسل ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه قبل أن يجلس لرواية الحديث.

ومن مواقفه:

- ♦ أراد الخليفة أن يفرض الموطأ قانوناً على كل البلاد، فرفض مالك، لأن الصحابة تفرقوا في الأمصار وعند أهل كل بلد علم.

♦ طلب منه هارون الرشيد أن يأتي إلى قصره ليُسمع أبناءه الموطاء، فقال كلمته الشهيرة: "العلم يؤتى ولا يأتي". فجاء الخليفة بنفسه إلى مجلسه.

♦ أفتى بأن البيعة تحت الإكراه لا تلزم، ففهم الناس أنها تبيح الخروج على المنصور، فجلده والي المدينة حتى خلع كتفه.

وانتشر مذهبه في المغرب العربي والأندلس وغرب إفريقيا، وما زال مذهب أهل شمال إفريقيا إلى اليوم.

محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ): مهندس المنهج

وُلد في غزة يتيماً فقيراً، ونشأ في مكة. عاش سنوات في البادية مع قبيلة هذيل، فأتقن العربية الفصحى والرمي. وحفظ الموطاء صغيراً، ثم رحل إلى مالک في المدينة ولازمه حتى وفاته.

ثم انتقل إلى العراق، ودرس على الشيباني فقه أهل الرأي. فصار أول من جمع بين المدرستين: حديث المدينة وقياس الكوفة.

وأعظم إنجازاته كتاب "الرسالة"، أول كتاب في "أصول الفقه"، أي العلم الذي يضع القواعد: كيف نستنبط الحكم؟ ما مرتبة القرآن والسنة والإجماع والقياس؟ متى يُقبل الحديث؟ فلم يعد الفقه اجتهاداً حراً، بل صار له منهج مضبوط.

كان له مذهب قديم في العراق، ثم لما انتقل إلى مصر غيّر كثيراً من آرائه، فصار له "مذهب جديد"، ومات فيها. وكان شاعراً أيضاً، ومن أبياته المشهورة:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ونورُ الله لا يُهدى لعاصي

أحمد بن حنبل (164-241هـ): إمام الثبات

عاش في بغداد، ورحل في طلب الحديث إلى الحجاز واليمن والشام والعراق. وجمع "المسند"، الذي يضم قرابة ثلاثين ألف حديث.

وجاءت المحنة: فرض المأمون ثم المعتصم على العلماء القول بأن القرآن مخلوق. فأجاب أغلبهم تحت التهديد، وثبت أحمد. فسُجن نحو ثمانية وعشرين شهراً، وجُلد في عهد المعتصم حتى أُغمي عليه، ولم يتراجع. ولما مات خرجت حشود هائلة في جنازته.

مقارنة بين الأئمة الأربعة

أبو حنيفة	مالك	الشافعي	أحمد
المدينة	المدينة	مكة، بغداد، مصر	بغداد
أهم كتاب	الموطأ	الرسالة	المسند

أبو حنيفة	مالك	الشافعي	أحمد
المنهج	الحديث وعمل أهل المدينة	قواعد تجمع بين الحديث والقياس	الحديث أولاً وأخيراً
أين ينتشر اليوم	تركيا، آسيا الوسطى، شبه القارة الهندية، البلقان	المغرب العربي، غرب إفريقيا	مصر، اليمن، شرق إفريقيا، إندونيسيا وماليزيا
			الجزيرة العربية

وكانت هناك مذاهب أخرى اندثرت لأن تلاميذها لم يدوّنوها وينشروها، مثل مذهب الأوزاعي في الشام، ومذهب الليث بن سعد في مصر. وقد قال الشافعي إن الليث كان أفقه من مالك، لكن أصحابه لم يقوموا بمذهبه.

العصر الذهبي لتدوين السنة

٣

في القرن الثالث الهجري جُمعت أشهر كتب الحديث، المعروفة بـ"الكتب الستة":

الكتاب	المؤلف	بلده	الوفاة
صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري	بخارى	256هـ
صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج	نيسابور	261هـ
سنن أبي داود	أبو داود	سجستان	275هـ
سنن الترمذي	الترمذي	ترمذ	279هـ
سنن النسائي	النسائي	نسا في خراسان	303هـ
سنن ابن ماجه	ابن ماجه	قزوين	273هـ

ولاحظ شيئاً مدهشاً: كلهم تقريباً من فارس وآسيا الوسطى، أي من غير العرب. وهذا امتداد للظاهرة التي رأيناها في الفصل السابق: الموالى يقودون العلم.

البخاري: الامتحان في بغداد

قضى البخاري ست عشرة سنة في تأليف صحيحه. وتقول الرواية إنه كان يغتسل ويصلي ركعتين قبل أن يضع كل حديث فيه. واختار نحو سبعة آلاف حديث بالمكرر، وقرابة ألفين وستمئة دون تكرار، من بين مئات الآلاف التي سمعها. واشترط أشد الشروط: لا يقبل الحديث إلا إذا ثبت أن كل راوٍ قد التقى فعلاً بمن روى عنه.

ولما وصل إلى بغداد، أراد علماؤها امتحانه. فأخذوا مئة حديث، وخلطوا أسانيدھا بمتونها، فوضعوا سند كل حديث على متن حديث آخر. ثم وزعوها على عشرة رجال، فسأله كل واحد عن عشرة أحاديث. وكان البخاري يقول بعد كل حديث: لا أعرفه. فلما انتهوا، التفت إلى الأول وقال: حديثك الأول صوابه كذا، والثاني صوابه كذا. وأعاد المئة كلها إلى أسانيدھا الصحيحة بالترتيب، فأقرّ له الناس بالحفظ.

علم الرجال

تطور علم الإسناد الذي رأيناه يولد مع ابن سيرين إلى علم ضخّم، يدرس آلاف الرواة واحداً واحداً: متى وُلد، ومن لقي، وهل كان دقيقاً في حفظه، وهل اختلط في آخر عمره. ومن أبرز أئمنته يحيى بن معين وعلي بن المديني. وصار طلاب الحديث يقطعون آلاف الكيلومترات على الأقدام للقاء راوٍ واحد، فيما عُرف بـ"الرحلة في طلب الحديث".

اللغة: معركة البصرة والكوفة

٤

الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ): العبقري الزاهد

من أذكى العقول في التاريخ العربي، وكان يعيش فقيراً في كوخ بالبصرة، ورفض دعوة والي الأهواز ليكون في بلاطه. وإنجازاته مذهشة:

- ♦ اكتشف علم العروض، أي أوزان الشعر العربي. وثرى قصة أنه مرّ بسوق الصّقارين فسمع إيقاع المطارق على النحاس، فخطرت له الفكرة. ووضع خمسة عشر بحراً، ثم أضاف تلميذاً لتلميذه الأخفش بحراً سادساً عشر.
 - ♦ ألف "كتاب العين"، أول معجم في العربية. ورتبه ترتيباً صوتياً حسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفتين، فبدأ بحرف العين.
 - ♦ اخترع علامات التشكيل التي نستعملها اليوم: الفتحة ألف صغيرة مائلة، والضمة واو صغيرة، والكسرة ياء صغيرة، ثم الشدة والسكون. فحلّت محل نقاط أبي الأسود الحمراء.
- وتقول الرواية إنه مات سنة 170هـ بعد أن اصطدم بعمود في المسجد وهو شارد الذهن، يفكر في طريقة حسابية تمنع الباعة من غش الناس.

سيبويه (نحو 140-180هـ): قرآن النحو

هو تلميذ الخليل، وكان فارسياً من نواحي شيراز. ألف "الكتاب"، الذي جمع فيه النحو العربي كله تقريباً لأول مرة، فسماه العلماء بعده "قرآن النحو".

وانتهت حياته بقصة حزينة. ذهب إلى بغداد، فدُعي إلى مناظرة في مجلس الوزير يحيى البرمكي مع الكسائي، إمام نحاة الكوفة ومؤدب أبناء الرشيد. واختلفا في مسألة نحوية تُعرف بـ"المسألة الزنبورية". فاحتكموا إلى أعراب من البادية، فحكموا للكسائي. ويقال إنهم أغروا بالمال. فخرج سيبويه مكسور القلب، وعاد إلى فارس ومات شاباً.

مدرستان، منهجان

مدرسة البصرة	مدرسة الكوفة
الخليل، سيبويه	الكسائي، الفراء
قواعد صارمة، لا تقبل إلا ما كثر في كلام العرب	تقبل حتى الاستعمالات النادرة وتبني عليها

والطريف أن الأدوار هنا معكوسة: في الفقه كانت الكوفة مدرسة القياس، وفي النحو كانت البصرة هي مدرسة القياس.

الترجمة وبيت الحكمة

٥

البدايات مع المنصور

- ◆ طلب المنصور ترجمة كتب الفلك الهندية، فترجم كتاب "السند هند" نحو سنة 154هـ.
- ◆ استدعى أطباء من مدرسة جنديسابور في فارس، وأشهرهم أسرة بختيشوع النصرانية، التي خدمت الخلفاء أجيالاً.
- ◆ ترجم ابن المقفع (106-142هـ) من الفارسية "كيلة ودمنة"، وهي حكايات حكمة على أسنة الحيوانات أصلها هندي. وكتب "الأدب الكبير" و"الأدب الصغير" في الأخلاق والسياسة. لكنه أثهم بالزندقة، فقتله والي البصرة قتلة شنيعة وهو في نحو السادسة والثلاثين.

المأمون وبيت الحكمة

بدأت مع الرشيد "خزانة الحكمة"، ثم جعلها المأمون مركزاً للترجمة والبحث. وتروي المصادر أنه رأى في منامه أرسطو، فسأله عن الحُسن، فأجابه أرسطو بما معناه: ما حُسُن في العقل. فاستيقظ متحمساً للفلسفة اليونانية. فأرسل البعثات إلى الإمبراطور البيزنطي يطلب المخطوطات اليونانية، وأنفق على المترجمين بسخاء. ويُروى أنه كان يعطي حنين بن إسحاق وزن ما يترجمه ذهباً. وللأمانة، يرى بعض المؤرخين المعاصرين أن بيت الحكمة كان مكتبة كبيرة أكثر منه أكاديمية منظمة، وأن الترجمة كانت حركة واسعة يمولها الوزراء والأغنياء أيضاً، لا الخليفة وحده.

حنين بن إسحاق (194-260هـ): شيخ المترجمين

نصراني نسطوري من الحيرة. ترجم أكثر من مئة كتاب لجالينوس وأبقراط. وكان منهجه ثورياً:

◆ يجمع عدة مخطوطات للكتاب نفسه ويقارنها ليصل إلى النص الصحيح.

◆ يترجم المعنى كاملاً، لا الكلمة بالكلمة كما كان يفعل من قبله.

وكتب "العشر مقالات في العين"، وهو من أقدم الكتب المنهجية في طب العيون.

وتروي المصادر أن الخليفة المتوكل أراد أن يختبره، فطلب منه سماً يقتل به عدواً، ووعده بمكافأة كبيرة. فرفض حنين، فسجنه سنة كاملة. ثم أحضره وهدده بالقتل، فقال إن دينه يأمره بفعل الخير حتى مع الأعداء، ومهنته تُلزمه بالنفع لا بالضرر. فقال المتوكل إنه كان يمتحنه فقط، وصار يثق به.

ثابت بن قرة (221-288هـ)

كان من الصائبة في حرّان، وهي طائفة ورثت علوم الفلك والرياضيات من العصور القديمة. اكتشفه أحد بني موسى فأخذه إلى بغداد. ترجم كتب إقليدس وأرخميدس وبطليموس. واكتشف قاعدة لإيجاد "الأعداد المتحابة"، واقترب في حساب المساحات من أفكار سيطورها علم التفاضل والتكامل بعد قرون.

بنو موسى بن شاعر

ثلاثة إخوة، محمد وأحمد والحسن، تربوا في رعاية المأمون. ألفوا "كتاب الحيل"، الذي وصفوا فيه نحو مئة جهاز ميكانيكي. ومنها آلة تعزف الناي بنفسها وفق أنغام مسجلة على أسطوانة دوّارة، ويعدّها بعض المؤرخين من أقدم الآلات القابلة للبرمجة.

قياس الأرض

أمر المأمون بقياس محيط الأرض. فخرج فريقان من العلماء إلى سهل سنجار شمال العراق، ومنهم حسب بعض الروايات بنو موسى. سار أحدهما شمالاً والآخر جنوباً، يقيسان المسافة حتى يتغير ارتفاع النجم القطبي درجة واحدة. فحسبوا طول الدرجة، ومنه محيط الأرض، وجاءت النتيجة قريبة جداً من الحقيقة.

العلوم

6

الخوارزمي (نحو 164-235هـ): أبو الجبر

أصله من خوارزم في آسيا الوسطى، وعمل في بيت الحكمة.

- ◆ ألف "الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة"، فجعل الجبر علماً مستقلاً لأول مرة. ومن عنوانه جاءت كلمة **algebra** في اللغات الأوروبية.
- ◆ ألف كتاباً في الحساب الهندي نقل إلى العالم الإسلامي ثم إلى أوروبا النظام العشري والصفري، وهي الأرقام التي يسميها الأوروبيون "الأرقام العربية".
- ◆ تُرجم اسمه إلى اللاتينية **Algoritmi**، ومنه جاءت كلمة **algorithm**، أي الخوارزمية.
- ◆ وضع جداول فلكية، وكتاب "صورة الأرض" في الجغرافيا.

الكندي (نحو 185-259هـ): فيلسوف العرب

لقب بذلك لأنه من أوائل الفلاسفة الكبار من أصل عربي، من قبيلة كندة. كتب أكثر من مئتي رسالة في الفلسفة والرياضيات والبصريات والموسيقى والطب. وحاول أن يثبت أن الفلسفة لا تتعارض مع الإسلام.

ومن أعجب ما كتب "رسالة في استخراج المعنى"، أي فك الرسائل المشفرة. وفيها أقدم وصف معروف لطريقة "تحليل التكرار": تحسب كم مرة يتكرر كل رمز في الرسالة المشفرة، وتقارنه بالحروف الأكثر تكراراً في اللغة، فتكتشف المقابل. وهي من أسس علم التعمية حتى اليوم.

وفي عهد المتوكل سقط من الحظوة، وصودرت مكتبته وسُلّمت لبني موسى، ثم أُعيدت إليه لاحقاً.

جابر بن حيان

يُنسب إليه تأسيس علم الكيمياء العملية: التقطير والتبلور والتكليس. لكن المؤرخين المعاصرين يشككون كثيراً في شخصيته، ويرى أكثرهم أن الكتب المنسوبة إليه كتبها أجيال من العلماء لاحقاً، ونُسبت إليه.

أبو بكر الرازي (251-313هـ): أعظم أطباء عصره

أدار مستشفى في الري ثم في بغداد. وتروى قصة أنه لما طُلب منه اختيار موقع لمستشفى في بغداد، علّق قطعاً من اللحم في أحياء مختلفة، واختار المكان الذي فسد فيه اللحم أبطاً، لأن هواءه أنقى.

- ♦ كان أول من وصف الجدري والحصبة وصفاً دقيقاً، وفرّق بينهما في رسالة مستقلة.
- ♦ جمع في كتابه "الحاوي" خبرة الطب كلها، ومعها ملاحظاته على مرضاه.
- ♦ يذكر في كتبه أنه عالج مجموعة من المرضى ولم يعالج مجموعة أخرى مماثلة ليقارن النتائج، وهي فكرة قريبة من التجارب الطبية الحديثة.

التاريخ والأدب

v

المؤرخون

- ♦ ابن إسحاق كتب أول سيرة نبوية كاملة، ووصلتنا بعد أن هذبها ابن هشام، فصارت تُعرف بـ "سيرة ابن هشام".
- ♦ الواقدى كتب "المغازي"، وتلميذه ابن سعد كتب "الطبقات الكبرى" في تراجم الصحابة والتابعين.
- ♦ البلاذري كتب "فتوح البلدان" عن فتح كل إقليم.
- ♦ الطبري (224-310هـ) هو أعظمهم. كتب "تاريخ الرسل والملوك" من بداية الخلق إلى عصره، و"جامع البيان" في التفسير. وكان منهجه أن يجمع كل الروايات بأسانيد، ويترك للقارئ الحكم عليها. وتقول الرواية إنه كتب أربعين صفحة كل يوم أربعين سنة. ولما مات، دُفن ليلاً في بيته، لأن خصوصاً من عامة الحنابلة منعوا دفنه نهاراً.

الجاحظ (159-255هـ): أمير النثر

لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه. وُلد فقيراً في البصرة، وكان يبيع الخبز والسمك قرب نهر، ويقضي ليلاته في دكاكين الوراقين يقرأ الكتب. ومن أشهر كتبه:

- ♦ "الحيوان": موسوعة عن الحيوانات وطباعها، فيها ملاحظات عن أثر البيئة في الكائنات وصراعاها من أجل البقاء، رأى فيها بعض الباحثين المعاصرين أفكاراً سابقة لعصرها.
- ♦ "البيان والتبيين": في البلاغة والخطابة.
- ♦ "البخلاء": من أطرف كتب الأدب العربي، يسخر فيه من البخلاء بقصص حقيقية.

وتقول الأسطورة إنه مات حين سقطت عليه رفوف كتبه وهو في التسعين.

الشعراء

- ◆ **بشار بن برد وأبو نواس** جدّدا الشعر وتمردّا على المقدمات الطللية القديمة. وكان أبو نواس شاعر الخمر والمجون، ثم كتب في آخر عمره أشعاراً في التوبة.
 - ◆ **أبو العتاهية** شاعر الزهد، كتب شعراً بسيطاً عن الموت وفناء الدنيا.
 - ◆ **أبو تمام والبحري** قمتا الشعر في القرن الثالث، الأول بالمعاني العميقة والصور الصعبة، والثاني بالموسيقى العذبة.
- وفي هذه الفترة تُرجمت إلى العربية حكايات فارسية ستصير نواة "ألف ليلة وليلة"، التي لم تكتمل في صورتها النهائية إلا بعد قرون في مصر.

التصوف المبكر

٨

الشخصية	ماذا أضافت
رابعة العدوية (ت 185هـ)	فكرة "الحب الإلهي": أن يُعبد الله حباً له، لا خوفاً من النار ولا طمعاً في الجنة
الحارث المحاسبي (ت 243هـ)	"المحاسبة": مراقبة النفس وتحليل دوافعها الخفية، ومنها جاء اسمه
الجنيد البغدادي (ت 297هـ)	لقّب "سيد الطائفة"، وربط التصوف بالشرعية وأبعده عن الشطحات

المحنة: من يملك السلطة الدينية؟

٩

رأينا المحنة في القصة السياسية، لكن معناها العلمي أعمق. كان المأمون يريد أن يكون الخليفة هو المرجع الديني الأعلى، يحدد العقيدة الصحيحة ويفرضها على العلماء.

فلما فشلت المحنة بثبات أحمد بن حنبل وأمثاله، ثم ألغاه المتوكل، تقرر شيء سيبقى قروناً: **السلطة الدينية في يد العلماء، لا في يد الخليفة**. صار للخليفة السيف والسياسة، وللعلماء الفتوى والعقيدة. ويرى كثير من المؤرخين أن هذا من أهم نتائج العصر العباسي كله.

وتراجع المعتزلة بعد ذلك، لكن أسئلتهم العقلية بقيت. وسيأتي في الفصل القادم من يحاول الجمع بين العقل والنص.



عصر الموسوعيين

ابن سينا وابن الهيثم والبيروني والغزالي وابن حزم

القرنان الرابع والخامس الهجريان · القرنان 10-11م

« فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاس، بل هو في

صدري. »

ابن حزم الأندلسي

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|---|----|-----------------------------|
| ١ | المفارقة الكبرى | ٦ | الفقه والحديث والسياسة |
| ٢ | الفلاسفة | ٧ | الأدب |
| ٣ | العلماء التجريبيون | ٨ | الجغرافيون والرحالة |
| ٤ | العقيدة: البحث عن طريق وسط | ٩ | الأندلس: قرطبة جوهرة العالم |
| ٥ | أبو حامد الغزالي (450-505هـ): حجة الإسلام | ١٠ | المؤسسات العلمية |

◆ عواصم العلم في القرنين الرابع والخامس الهجريين، من الشرق إلى الغرب

الشرق والغرب

نيسابور وطوس السلاجقة الجويني، القشيري، الغزالي، عمر الخيام	غزنة الغزنويون البيروني، الفردوسي	بخارى السامانيون ابن سينا في شبابه، الشاعر الرودي
حلب الحمدانيون المتيني، الفارابي، أبو فراس، والمعري في معرة النعمان قربها	بغداد الخلافة العباسية تحت البويهيين ثم السلاجقة الأشعري، الماوردي، الخطيب البغدادي، الغزالي في النظامية	الري وهمذان وأصفهان البويهيون ابن سينا، صاحب بن عباد، مسكويه
قرطبة الخلافة الأموية ثم الطوائف الزهراوي، ابن حزم، ابن عبد البر، مسلمة المجريطي	القيروان الفاطميون ثم الزيريون ابن أبي زيد القيرواني، ابن الجزار الطيب، ابن رشيق	القاهرة الفاطميون ابن الهيثم، ابن يونس الفلكي، الأزهر ودار العلم

■ المشرق الإيراني ■ القلب العربي ■ الغرب الإسلامي

١ المفارقة الكبرى

في القصة السياسية، كان هذا عصر ضعف الخلافة: البويهيون يحكمون بغداد، والفاطميون ينافسونها، والأقاليم تستقل واحداً بعد الآخر. لكن في عالم العلم، كان هذا هو العصر الأكثر إبداعاً.

والسبب هو التفكك نفسه. فبدل عاصمة واحدة، صار هناك عشرات البلاطات، وكل أمير يريد أن يتباهى بأعظم العلماء والشعراء في مجلسه. فصار العالم ينتقل بين البلاطات كما تری في الخريطة أعلاه، وإن ضاقت به مدينة وجد غيرها.

وانتشرت المكتبات الكبرى في كل مكان. ويروى أن الوزير صاحب بن عباد رفض دعوة من أمير ساماني لينتقل إلى بلاطه، لأن نقل كتبه وحدها يحتاج أربعمئة جمل.

٢ الفلاسفة

الفارابي (260-339هـ): المعلم الثاني

تركي الأصل من مدينة فاراب في آسيا الوسطى. لُقّب "المعلم الثاني" لأنه أعظم من شرح المنطق بعد أرسطو، "المعلم الأول".

◆ كتب "آراء أهل المدينة الفاضلة"، وفيه تصوّر لمدينة مثالية يحكمها حاكم حكيم، متأثراً بأفلاطون.

◆ ألّف "كتاب الموسيقى الكبير"، من أهم ما كُتب في نظرية الموسيقى في العصور الوسطى.

وثرى قصة أنه دخل مجلس سيف الدولة الحمداني في حلب، فأخرج آلة موسيقية وعزف عليها، فضحك الحاضرون. ثم غيّر العزف فبكوا، ثم غيّر فناموا، فتركهم نياماً وخرج. وعاش زاهداً، ومات في دمشق.

ابن سينا (370-428هـ): الشيخ الرئيس

أعجوبة عصره. وُلد قرب بخارى، وكتب سيرته الذاتية بنفسه، وفيها قصص مذهشة:

- ◆ حفظ القرآن في العاشرة، وأتقن الطب في نحو السادسة عشرة، وصار الأطباء الكبار يتعلمون منه.
 - ◆ قرأ كتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطو أربعين مرة حتى حفظه، دون أن يفهمه. ثم اشترى صدفَةً من بائع في السوق كتاباً صغيراً للفارابي يشرحه، بثلاثة دراهم، فافتح له المعنى. ففرح وتصدّق على الفقراء شكراً.
 - ◆ عالج الأمير الساماني نوح بن منصور من مرض عجز عنه الأطباء، فُسّح له بدخول مكتبة القصر الملكية.
- وعاش حياة مضطربة، يتنقل بين البلاطات هارباً أحياناً. صار وزيراً في همذان، ثم سُجن، ثم هرب إلى أصفهان. وكان يعمل نهاراً في السياسة والطب، ويجلس ليلاً مع تلاميذه يكتب ويناقش.

وأشهر كتبه:

الكتاب	المجال	أثره
القانون في الطب	موسوعة طبية في خمسة أجزاء	ترجم إلى اللاتينية، ودّرس في جامعات أوروبا نحو خمسة قرون
الشفاء	موسوعة فلسفية في المنطق والطبيعة والرياضيات والإلهيات	أعظم بناء فلسفي في الإسلام

فلاسفة آخرون

- ◆ **إخوان الصفا:** جماعة سرية في البصرة كتبت اثنتين وخمسين رسالة تجمع كل علوم عصرها، دون أن تكشف أسماء أعضائها.
- ◆ **مسكويه:** كتب "تهذيب الأخلاق" في فلسفة الأخلاق، و"تجارب الأمم" في التاريخ.

العلماء التجريبيون

٣

ابن الهيثم (354-430هـ): أبو البصريّات

وُلد في البصرة، وسمع به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، حين قال ابن الهيثم إنه يستطيع تنظيم فيضان النيل بسدّ. فاستدعاه إلى مصر.

لكن حين وصل إلى أسوان ورأى النهر، أدرك أن المشروع مستحيل بإمكانيات عصره. وكان الحاكم معروفاً بأنه يقتل لأتفه الأسباب، فتقول الرواية إن ابن الهيثم تظاهر بالجنون، فحُبس في بيته سنوات حتى مات الحاكم.

وفي تلك العزلة كتب أعظم أعماله، "كتاب المناظر":

- ◆ أثبت أن الرؤية تحدث لأن الضوء ينعكس من الأشياء ويدخل العين، لا لأن العين تُطلق أشعة نحو الأشياء كما كان يعتقد بطليموس وغيره.
 - ◆ درس "البيت المظلم": غرفة مظلمة فيها ثقب صغير، تظهر فيها صورة مقلوبة لما في الخارج. وهي الفكرة التي ستقوم عليها آلة التصوير بعد قرون.
 - ◆ والأهم أنه اعتمد منهجاً صارماً: يضع فرضية، ثم يصمم تجربة ليختبرها، ثم يقبلها أو يرفضها حسب النتيجة. ولهذا يعدّه كثير من المؤرخين من رواد المنهج العلمي التجريبي.
- وُترجم كتابه إلى اللاتينية باسم "Alhazen"، وأثر في علماء أوروبا مثل روجر بيكون وكبلر.

البيروني (362-440هـ): العقل الشامل

- من خوارزم. أخذه السلطان محمود الغزنوي إلى غزنة، ورافقه في حملاته على الهند. وبدل أن يكتفي بالحرب، تعلّم اللغة السنسكريتية، وجلس مع علماء الهند.
- ◆ كتب "تحقيق ما للهند"، أول دراسة علمية لحضارة أخرى: أديانها وفلسفتها وعلومها وعاداتها. وكان منصفاً بشكل نادر، يعرض أفكار الهنود كما هي، دون سخرية ولا تشويه.
 - ◆ حسب نصف قطر الأرض بطريقة جديدة: صعد جبلاً معروف الارتفاع، وقاس زاوية انخفاض الأفق، ثم استنتج حجم الأرض بالهندسة. وجاءت نتيجته قريبة جداً من القياس الحديث.
 - ◆ كتب "الآثار الباقية" عن تقاويم الأمم المختلفة وأعيادها، و"القانون المسعودي" في الفلك، وناقش فيه احتمال دوران الأرض حول نفسها.
 - ◆ قاس الكثافة النوعية لعشرات المعادن والأحجار الكريمة بدقة مذهلة.
- وثرى قصة مؤثرة عن موته: زاره فقيه وهو يحتضر، فسأله البيروني عن مسألة في الميراث. فتعجب الفقيه وقال: أتسأل عن هذا وأنت في هذه الحال؟ فقال البيروني: أن أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، أليس خيراً من أن أودّعها وأنا جاهل بها؟ فأخبره بها، وخرج الفقيه، فسمع الصراخ عليه وهو في الطريق.

علماء آخرون

العالم	المجال	الإنجاز
البتاني (ت 317هـ)	الفلك	قاس طول السنة الشمسية بدقة عالية، وطوّر استعمال الجيب في حساب المثلثات
عبد الرحمن الصوفي (ت 376هـ)	الفلك	ألّف "صور الكواكب الثابتة"، وفيه أقدم وصف مسجل لمجرة المرأة المسلسلة، وصفها بأنها "لطة سحابية"
أبو الوفاء البوزجاني (ت 388هـ)	الرياضيات	طوّر علم المثلثات، ومنه دالة الظل

العالم	المجال	الإنجاز
ابن يونس (ت 399هـ)	الفلك	رصد السماء في القاهرة ووضع جداول فلكية دقيقة
الزهرابي (ت نحو 404هـ)	الجراحة	يأتي الحديث عنه في الأندلس
عمر الخيام (ت 526هـ تقريباً)	الرياضيات والفلك	حلّ المعادلات التكعيبية هندسياً، وشارك في وضع التقويم الجليلي، الذي هو أدق من التقويم الغريغوري المستعمل اليوم

وعمر الخيام معروف في العالم أكثر بـ "رباعياته" بالفارسية، لكنه في عصره كان يُعرف عالمياً رياضياً قبل كل شيء.

٤ العقيدة: البحث عن طريق وسط

أبو الحسن الأشعري (260-324هـ): الخروج من المعتزلة

عاش أربعين سنة معتزلياً، تلميذاً لأستاذ المعتزلة في البصرة، أبي علي الجبائي. ثم ثرّوى قصة المناظرة التي غيّرت حياته. سأل أستاذه عن ثلاثة إخوة: الأول مات مؤمناً، والثاني كافراً، والثالث مات صغيراً.

قال الجبائي: الأول في الجنة، والثاني في النار، والثالث لا ثواب ولا عقاب. فقال الأشعري: فإن قال الصغير: يا رب، لماذا أمتني صغيراً ولم تُبْقني حتى أعمل الصالحات فأدخل الجنة؟ قال الجبائي: يقول الله: علمت أنك لو كبرت لكفرت، فكان موتك صغيراً خيراً لك. فقال الأشعري: فيقول الأخ الكافر: يا رب، علمت حالي كما علمت حاله، فلماذا لم تمتني صغيراً مثله؟ فسكت الجبائي.

فاعتزل الأشعري الناس أياماً، ثم صعد منبر جامع البصرة يوم الجمعة، وأعلن أنه خرج من مذهب المعتزلة كما يخلع ثوبه، وخلعه.

وأسس منهجاً جديداً: الدفاع عن عقيدة أهل السنة، لكن بأدوات العقل والمنطق نفسها التي كان يستعملها المعتزلة. وفي الوقت نفسه، أسس أبو منصور الماتريدي في سمرقند منهجاً قريباً منه. فصار الأشاعرة والماتريدية يمثلان عقيدة أغلب أهل السنة إلى اليوم.

الجويني: إمام الحرمين (419-478هـ)

لُقّب بذلك لأنه درّس في مكة والمدينة سنوات. ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له نظام الملك مدرسة نظامية. وكان أستاذاً الغزالي.

٥ أبو حامد الغزالي (450-505هـ): حجة الإسلام

الصعود

وُلد في طوس يتيماً فقيراً، وتتلّمذ على الجويني. وفي الرابعة والثلاثين عيّنه نظام الملك أستاذاً في نظامية بغداد، أعلى منصب علمي في العالم الإسلامي آنذاك. فكان يحضر درسه مئات الطلاب والعلماء.

الأزمة

ثم وقع له ما يروييه في سيرته الذاتية "المنقذ من الضلال". بدأ يشك في كل شيء: هل الحواس صادقة؟ هل العقل نفسه موثوق؟ وأدرك أنه يطلب الشهرة والجاه أكثر مما يطلب الله.

فدخل في أزمة نفسية وجسدية حادة: انعقد لسانه فلم يعد يستطيع التدريس، وفقد شهيته، وعجز الأطباء عن علاجه. فترك كل شيء سنة 488هـ: المنصب والمال والشهرة. وخرج متخفياً، وتنقل نحو عشر سنوات بين دمشق والقدس ومكة، يعتكف ويتأمل. وتقول الروايات إنه كان يعتكف في منارة الجامع الأموي بدمشق.

الثمرة

الكتاب	ماذا فعل فيه
إحياء علوم الدين	جمع بين الفقه والتصوف والأخلاق، وأراد أن يعيد إلى الدين روحه بعد أن صار في رأيه مجرد قوانين وجدال
تهافت الفلاسفة	انتقد الفلاسفة، وخاصة ابن سينا، في عشرين مسألة، وحكم بالكفر على ثلاث منها
المنقذ من الضلال	سيرته الذاتية ورحلته من الشك إلى اليقين
المستصفى	من أهم كتب أصول الفقه

ويتهمه بعض الكتاب بأنه كان سبباً في تراجع العلوم والفلسفة عند المسلمين. لكن كثيراً من المؤرخين المعاصرين يرفضون هذا الرأي، لأن العلوم استمرت قروناً بعده، كما سئى في الفصول القادمة. والغزالي نفسه دافع عن المنطق ودعا إلى تعلّمه، وانتقد من يرفض علوم الحساب والفلك باسم الدين.

الفقه والحديث والسياسة

٦

العالم	المدينة	الإنجاز
ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)	القيروان	كتب "الرسالة"، المختصر الذي يتعلم منه المالكية في شمال إفريقيا وغربها حتى اليوم، ولقب "مالك الصغير"
الحاكم النيسابوري (ت 405هـ)	نيسابور	ألف "المستدرک على الصحيحين"، وجمع فيه أحاديث رأى أنها على شرط البخاري ومسلم ولم يذكرها
الماوردي (ت 450هـ)	بغداد	كتب "الأحكام السلطانية"، أول كتاب منظم في نظرية الحكم والدولة في الإسلام
الخطيب البغدادي (ت 463هـ)	بغداد	ألف "تاريخ بغداد"، وترجم فيه لنحو ثمانية آلاف شخص من علماء المدينة وأعلامها
ابن عبد البر (ت 463هـ)	قرطبة	حافظ المغرب في الحديث، وصاحب "التمهيد" في شرح الموطأ
القشيري (ت 465هـ)	نيسابور	كتب "الرسالة القشيرية"، أهم مرجع في التصوف السني

ويُلاحظ أن الماوردي كتب "الأحكام السلطانية" في وقت كان فيه الخليفة ضعيفاً تحت سيطرة البويهيين. فحاول أن يحفظ للخلافة مكانتها نظرياً، بينما كانت تفقدها عملياً.

الأدب

v

المتنبي (303-354هـ): أعظم شعراء العربية

وُلد في الكوفة لأسرة فقيرة. وفي شبابه، تقول الرواية إنه ادعى النبوة في بادية الشام، فسُجن، ومن هنا جاء لقبه "المتنبي". ثم صار شاعر سيف الدولة الحمداني في حلب تسع سنوات، وكتب فيه أعظم قصائده عن حروبه مع الروم. ثم اختلف معه، فذهب إلى كافور الإخشيدي في مصر، يطمع في ولاية لم يحصل عليها، فهجاه هجاءً لاذعاً. وقصة موته من أشهر القصص في الأدب العربي. هاجمه قطاع طرق قرب بغداد، فأراد أن يهرب. فقال له غلامه: أَلست أنت القائل:

الخليلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فرجع وقاتل حتى قُتل، يقال: قتله بيته.

أبو العلاء المعري (363-449هـ): الشاعر الفيلسوف

فقد بصره في الرابعة بسبب الجدري. ثم اعتزل الناس في بيته بمعرة النعمان، فلُقّب نفسه "رهين المحبسين": العمى والبيت. وكان نباتياً، يمتنع عن اللحم وكل ما يأتي من الحيوان رحمةً به. وكتب "رسالة الغفران"، وهي رحلة خيالية إلى العالم الآخر، يلتقي فيها الشعراء في الجنة والنار ويحاوهم. ويرى بعض الباحثين أنها ربما أثرت في "الكوميديا الإلهية" للإيطالي دانتي، وإن كانت المسألة موضع خلاف.

كتاب آخرون

- ♦ **أبو الفرج الأصفهاني** أمضى نحو خمسين سنة في تأليف "الأغاني"، موسوعة الشعر والغناء العربي. ويُروى أن صاحب بن عباد كان يحمل في أسفاره ثلاثين جماً من الكتب، فلما وصله "الأغاني" استغنى به عنها.
- ♦ **بدیع الزمان الهمداني** اخترع فن "المقامات": حكايات قصيرة بنثر مسجوع، بطلها محتال فصيح يخدع الناس ببلاغته. ثم أتقنه الحريري بعده.
- ♦ **الفردوسي** كتب "الشاهنامه"، ملحمة ملوك فارس، في نحو خمسين ألف بيت بالفارسية. ومن هذا العصر صارت الفارسية اللغة الأدبية الثانية في الحضارة الإسلامية بعد العربية.

الجغرافيون والرحالة

٨

الرحالة أو الجغرافي	ماذا ترك
ابن فضلان (رحلته سنة 309هـ)	أرسله الخليفة المقتدر إلى ملك بلغار الفولغا في روسيا، فكتب وصفاً لشعوب الشمال، ومنها الروس الفايكنغ، صار مصدراً نادراً عنهم
المسعودي (ت 346هـ)	جاء العالم الإسلامي والهند وكتب "مروج الذهب"، يجمع فيه التاريخ والجغرافيا
ابن حوقل (القرن 4هـ)	وصف بلاد الإسلام في "صورة الأرض"
المقدسي (ت نحو 380هـ)	كتب "أحسن التقاسيم"، بناء على مشاهداته الشخصية، وكان يحرص على ذكر عادات الناس ولهجاتهم وأسعارهم

الأندلس: قرطبة: جوهرة العالم

٩

مكتبة الحكم المستنصر

جمع الخليفة الأموي الحكم المستنصر مكتبة تُقدَّر بنحو أربعمئة ألف مجلد، وكان يرسل وكلاءه إلى بغداد والقاهرة ودمشق يشترون له الكتب فور صدورها. وتقول الروايات إن فهرسها وحده كان في أربعة وأربعين مجلداً.

الزهاوي (ت نحو 404هـ): أبو الجراحة

كتب موسوعة طبية في ثلاثين مقالة سماها "التصريف لمن عجز عن التأليف". وكانت المقالة الأخيرة في الجراحة، رسم فيها نحو مئتي أداة جراحية، كثير منها من اختراعه. ووصف عمليات دقيقة: استئصال اللوزتين، وإخراج حصى المثانة، وربط الشرايين لوقف النزيف.

وُترجمت مقالاته الجراحية إلى اللاتينية باسم "Albucasis"، وظلت مرجعاً في جامعات أوروبا قرونًا.

ابن حزم (384–456هـ): العالم الذي لا يُحرق علمه

بدأ حياته وزيراً في السياسة، ثم تركها للعلم.

♦ كتب "طوق الحمامة" في الحب وأحواله، وهو تحليل نفسي دقيق للعشق، مليء بقصص حقيقية من حياته وحياة معاصريه.

♦ كتب "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، من أوائل الكتب في مقارنة الأديان.

♦ دافع عن المذهب الظاهري، الذي يأخذ بظاهر النصوص ويرفض القياس، في كتابه الضخم "المحلى".

وكان حادّ اللسان، فكثّر أعداؤه. فأمر حاكم إشبيلية بإحراق كتبه علناً، فقال:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمّنه القرطاس بل هو في صدري

وقفة · سؤال وجواب

طوق الحمامة: ما هو بالضبط، وماذا يعلمك إن قرأته؟

عن الكتاب

اسمه الكامل "طوق الحمامة في الألفة والألف"، أي في الحب والمحبين. كتبه ابن حزم في مدينة شاطبة نحو سنة 418هـ، وهو في الثلاثينات من عمره، منفياً بعد أن انهارت الخلافة في قرطبة وتشتت أهلها. وكتبه بطلب من صديق سألته أن يكتب له رسالة في الحب.

وأغرب ما في الكتاب أن مؤلفه فقيه ظاهري صارم، يأخذ بحرفية النصوص. ومع ذلك يكتب عن العشق بصراحة وصدق ودقة ملاحظة، ويروي فيه قصصاً من حياته الشخصية. وهذا وحده يقول لك شيئاً عن المجتمع الأندلسي: الحب لم يكن موضوعاً محرّماً على العلماء.

ويبدأ الباب الأول بجملة صارت من أشهر ما قيل في الحب:

« الحب، أعزك الله، أوله هزل وآخره جد. »

ويعرّف ابن حزم الحب بأنه اتصال بين نفوس متشابهة، وليس انجذاباً إلى الجمال وحده. ودليله بسيط: لو كان الحب للجمال فقط، لأحبّ الجميع أجمل الناس، ولما أحبّ أحدٌ إنساناً أقلّ جمالاً وهو يعرف ذلك.

بناء الكتاب

قسّمه ابن حزم ثلاثين باباً، كأنه عالم يصنّف ظاهرة طبيعية:

القسم	عدد الأبواب	المحتوى
أصول الحب	عشرة	ما الحب، وعلاماته، وكيف يبدأ: من نظرة، أو من وصف، أو من طول صحبة
أعراض الحب وصفاته	اثنا عشر	الرسول بين المحبين، والسر، والرقيب، والواشي، والوصل، والهجر، والوفاء، والغدر
آفات الحب	ستة	ما يفسد الحب ويهدمه
الخاتمة	اثنان	قبح المعصية، وفضل العفة

وفي كل باب يشرح الفكرة، ثم يروي قصصاً حقيقية رآها في قصور قرطبة وبيوتها، ثم يضيف أبياتاً من شعره.

أمثلة من أفكاره، وما تعنيه لك اليوم

ما يقوله ابن حزم	الدرس لك اليوم
علامات الحب: يتبع المحبّ محبوبه بنظره، ويُقبل على حديثه، ويرتبك إذا ظهر فجأة، ويحب ما يحبه	تتعلم قراءة المشاعر في سلوك الناس، وفي سلوكك أنت
الحب من أول نظرة سريع الذهاب كما جاء. والحب الذي يأتي ببطء وطول معرفة أثبت وأبقى	لا تبين قراراتك الكبرى على اندفاع اللحظة الأولى
"الحب بالوصف": أن يعشق الإنسان شخصاً لم يره، فقط مما سمع عنه. ويرى أنه حب ضعيف الأساس، يصطدم بالحقيقة عند اللقاء	هذا بالضبط ما يحدث اليوم مع الصور والرسائل على الإنترنت
يروى أنه أحبّ في صباه جارية شقراء الشعر، فلم يستحسن بعدها امرأة سوداء الشعر	الحب الأول يطبع الذوق مدى الحياة، وكثير من تفضيلاتنا لها جذور في تجارب قديمة
الواشي والرقيب: يحلّ كيف يُفسد طرف ثالث العلاقة بالنميمة والغيرة والمراقبة	تتعلم كيف تحمي علاقاتك، زواجاً كانت أو صداقة أو شراكة عمل، من الكلام الذي يُنقل
الصديق المساعد وكتمان السر: يميّز بين من يؤتمن ومن يُذيع	تتعلم اختيار من تأتمن على أسرارك
الوفاء: يجعله درجات، أعلاها أن تحفظ سرّ من أحببته حتى بعد الفراق والخصام	الأخلاق الحقيقية تظهر بعد انتهاء العلاقة، لا أثناءها
السلو: كيف ينسى المحب، ومتى يكون النسيان طبيعياً ومتى يكون غدراً	فهم مراحل التعافي بعد الفقد أو الانفصال
العفة: الحب في ذاته شعور طبيعي لا يُلام عليه الإنسان، أما الخطأ ففي الأفعال	التوازن بين قوة المشاعر وضبط السلوك

ماذا ستكسب إن قرأته؟

1. ذكاء عاطفي: الكتاب أشبه بكتاب في علم النفس قبل ظهور هذا العلم بألف سنة. يعلّمك أن تسمّي المشاعر وتفهمها بدل أن تنجرف معها.
2. حكمة في العلاقات عموماً، لا في الحب وحده. فالوشاية والغيرة والوفاء والكتمان تنطبق على الصداقة والعمل والعائلة أيضاً.
3. نافذة على التاريخ: هو من أصدق المصادر عن الحياة اليومية في قرطبة، في لحظة سقوط الخلافة الأموية التي رأيناها في القصة السياسية.
4. لغة عربية جميلة: نثر أندلسي رشيق، تتخلله أبيات شعر، يقوّي لغتك وذوقك الأدبي.

5. نموذج في التفكير المنظم: كيف يأخذ عالم موضوعاً غامضاً كالحب، فيصنّفه ويلاحظه ويحلّله بمنهج.

نصائح للقراءة

- ◆ الكتاب قصير نسبياً، ويمكن قراءته في أسبوع أو أسبوعين.
 - ◆ لغته كلاسيكية، فاختر طبعة محققة بشروح، مثل تحقيق إحسان عباس أو تحقيق الطاهر أحمد مكي.
 - ◆ يمكنك أن تقرأه مع ترجمة فرنسية بجانبه، فقد تُرجم إليها أكثر من مرة، وأشهر عناوينه "Le Collier de la colombe". وهذا يساعدك على فهم المقاطع الصعبة.
 - ◆ ابدأ إن شئت بآبواب علامات الحب، والواشي، والوفاء، والسلوّ، فهي الأمتع والأقرب إلى الحياة اليومية.
- ومن طرائف تاريخه أنه كاد يضيع: لم تصلنا منه إلا مخطوطة واحدة، محفوظة اليوم في مكتبة جامعة لايدن في هولندا. وناسخها اختصر كثيراً من أشعاره. ولم يُطبع لأول مرة إلا سنة 1914م.

المؤسسات العلمية

١٠

المؤسسة	المدينة	التأسيس	ميزتها
جامع القرويين	فاس	245هـ/859م	أسسته امرأة اسمها فاطمة الفهرية، ويعدّه كثيرون من أقدم الجامعات القائمة في العالم
الجامع الأزهر	القاهرة	359-361هـ	أسسه الفاطميون مركزاً للدعوة الإسماعيلية، ثم صار في العصر الأيوبي والمملوكي أكبر مرجع سني
البيمارستان العضي	بغداد	372هـ	مستشفى كبير يعمل فيه عشرات الأطباء، ومعه مكان لتعليم الطب
دار العلم	القاهرة	395هـ	أسسها الحاكم بأمر الله، مكتبة عامة يدخلها الجميع، ويُعطى فيها الدبر والورق مجاناً
المدارس النظامية	بغداد ونيسابور وغيرهما	459هـ	أول شبكة مدارس تمّولها الدولة، تعطي الطلاب سكناً ومنحة، وصارت نموذجاً قلّده الجميع بعدها



بين الصليبيين والمغول

ابن رشد وابن عربي وابن النفيس والطوسي

القرنان السادس والسابع الهجريان · القرنان 12-13م

« المشاهدة أصدق من قول جالينوس، مهما كان عظيماً. »

عبد اللطيف البغدادي، يتصرف

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|------------------------------------|---|-------------------------------|
| ١ | عصر الحروب، وعصر العلم أيضاً | ٥ | الطب والهندسة: تحدي القدماء |
| ٢ | الأندلس والمغرب: آخر مجد الفلسفة | ٦ | التاريخ والجغرافيا |
| ٣ | ابن عربي (560-638هـ): الشيخ الأكبر | ٧ | العالم والسلطان: الصدام مستمر |
| ٤ | المشرق: العقل والنص والروح | ٨ | الكارثة المغولية |

◆ كيف انتقلت علوم المسلمين إلى أوروبا: الاسم العربي، والاسم اللاتيني

صقلية وجنوب إيطاليا	طليطلة
بلاط الملوك النورمان ثم الإمبراطور فريديريك الثاني، حيث عمل علماء عرب ومترجمون لاتينيون جنباً إلى جنب	سقطت بيد قشتالة سنة 478هـ/1085م، فصارت مركزاً لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية. ترجم فيها جيرارد الكريموني وحده نحو 87 كتاباً
الاسم في أوروبا وأثره	الاسم العربي والكتاب
Avicenna مرجع كليات الطب قرونًا	ابن سينا القانون في الطب
Averroes لقبه "الشارح"، ونشأت باسمه مدرسة فلسفية	ابن رشد شروح أرسطو
Alhazen أساس علم البصريات الأوروبي	ابن الهيثم كتاب المناظر
Algoritmi الأرقام والصفر، وكلمتا algorithm algebra	الخوارزمي الحساب الهندي والجبر
Rhazes الطب السريري	أبو بكر الرازي الحاوي، والجدي والحصة
Albucasis مرجع الجراحة وأدواتها	الزهاوي التصريف، مقالة الجراحة
Avenzoar الطب التجريبي	ابن زهر التيسير في المداواة
Albategnius استشهد به كوبرنيكوس في كتابه	البتاني الزيج الصابي

عصر الحروب، وعصر العلم أيضاً

١

كان هذا العصر من أعنف العصور: الصليبيون في المشرق، وحروب الاسترداد في الأندلس، ثم اجتياح المغول من الشرق. لكن العلم لم يتوقف، بل تحرك. فتنقل العلماء من المدن المهددة إلى المدن الآمنة: من الأندلس إلى المغرب ومصر، ومن خراسان والعراق إلى الشام ومصر والأناضول.

وفي هذا العصر حدث شيء جديد: بدأت أوروبا تتعلم من العرب. فبعد سقوط طليطلة وصقلية، تُرجمت كتب العلماء المسلمين إلى اللاتينية، كما ترى في المخطط أعلاه، وصارت أساس جامعات أوروبا الناشئة.

الأندلس والمغرب: آخر مجد الفلسفة

٢

كانت الأندلس والمغرب آنذاك تحت حكم المرابطين ثم الموحيدين، الذين جعلوا مراكش عاصمة كبرى للعلم.

ابن طفيل (ت 581هـ): قصة "حي بن يقظان"

كان طبيب الخليفة الموحي ووزيره. وكتب قصة فلسفية عن طفل يُترك رضيعاً في جزيرة خالية من البشر، فترضعه ظبية وتربيته. ويكبر حي وحده، فيكتشف بعقله وملاحظته كل شيء خطوة خطوة: يكتشف النار، ثم يشرح الظبية بعد موتها ليعرف سر الحياة، ثم يتأمل الأفلاك، حتى يصل بالعقل وحده إلى معرفة الخالق.

وفكرة القصة أن العقل والدين يصلان إلى الحقيقة نفسها. وقد تُرجمت إلى اللاتينية سنة 1671م، وانتشرت في أوروبا، ويرى بعض الباحثين أنها ربما ألهمت رواية "روبنسون كروزو".

ابن رشد (520-595هـ): الفيلسوف القاضي

وُلد في قرطبة لأسرة من القضاة، وكان جده قاضي الجماعة فيها. فجمع بين الفقه والطب والفلسفة: صار قاضياً في إشبيلية ثم قاضي قرطبة، وطبيباً للخليفة الموحي.

اللقاء الذي غير حياته

يروى ابن رشد بنفسه أن ابن طفيل أدخله على الخليفة أبي يعقوب يوسف. فسأله الخليفة أول ما رآه: ما رأي الفلاسفة في السماء، أي قديمة أم مخلوقة؟ ففزع ابن رشد وأنكر أنه يشتغل بالفلسفة، لأن الموضوع كان خطراً. فالتفت الخليفة إلى ابن طفيل، وبدأ يناقش المسألة بنفسه ويعرض آراء أرسطو وأفلاطون وعلماء الإسلام، فاطمأن ابن رشد وتكلم. وخرج من عنده بمال وخلعة.

ثم شك الخليفة يوماً لابن طفيل أن كتب أرسطو غامضة، وتمنى لو يشرحها أحد. فرشح ابن طفيل ابن رشد، ففرض ابن رشد بقية حياته يشرح كتب أرسطو كلها تقريباً.

أعماله

الكتاب	موضوعه
شروح أرسطو	شرح كتبه بثلاثة مستويات: مختصر، ومتوسط، ومطول
تهافت التهافت	ردّ على كتاب الغزالي "تهافت الفلاسفة"، مسألة مسألة
فصل المقال	أثبت فيه أن الشريعة تأمر بالنظر العقلي، وأن الحكمة والشريعة أختان لا تتعارضان
بداية المجتهد ونهاية المقتصد	في الفقه المقارن، يعرض آراء المذاهب في كل مسألة وأسباب اختلافها، وما زال يُدرّس

الكتاب	موضوعه
الكليات	في الطب

النكبة

في آخر حياته، ضغط الفقهاء على الخليفة يعقوب المنصور، فأثَّهم ابن رشد في عقيدته. فُتفي سنة 593هـ إلى بلدة صغيرة قرب قرطبة، وأُحرقت كتبه الفلسفية، ومُنِع الاشتغال بالفلسفة. ثم عفا عنه الخليفة بعد مدة، فانتقل إلى مراكش ومات فيها سنة 595هـ.

ومات ابن رشد والفلسفة تكاد تنتهي في العالم الإسلامي الغربي، بينما كانت كتبه تبدأ حياة جديدة في أوروبا. ووضعه الشاعر الإيطالي دانتي بين حكماء العالم القديم، ورسمه الرسام رافائيل في لوحته الشهيرة "مدرسة أثينا".

علماء آخرون من الغرب الإسلامي

العالم	المدينة	الإنجاز
القاضي عياض (476-544هـ)	سبتة	ألف "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، وكان إمام المالكية في المغرب، حتى قيل: لولا عياض لما ذُكر المغرب
ابن زهر (ت 557هـ)	إشبيلية	طبيب تجريبي، صديق ابن رشد، يُنسب إليه أول وصف لحشرة الجرب، وجَزَب فتح القصة الهوائية على الماعز قبل البشر
أبو مدين شعيب (ت 594هـ)	بجاية ثم تلمسان	شيخ التصوف في المغرب، ذُفن في العُتَّاد قرب تلمسان، وما زال مقامه مزاراً، وتأثر بتلاميذه ابن عربي
ابن جبير (540-614هـ)	غرناطة وبلنسية	كتب رحلته إلى الحج، ووصف فيها المشرق في زمن صلاح الدين، وصقلية تحت حكم النورمان
ابن البيطار (ت 646هـ)	من مالقة، عمل في القاهرة ودمشق	عالم النبات والأدوية، جمع في "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" نحو ألف وأربعمئة دواء، منها مئات لم يذكرها أحد قبله
ابن مالك (600-672هـ)	من جيان، استقر في دمشق	نظم قواعد النحو كلها في ألف بيت تقريباً، هي "الألفية"، التي ما زال الطلاب يحفظونها

الإدريسي (493-560هـ): خريطة العالم

وُلد في سبتة، ودرس في قرطبة، ثم دعاه روجر الثاني، ملك صقلية النورماني المسيحي، إلى بلاطه في باليرمو. فعمل عنده نحو خمس عشرة سنة.

جمع الإدريسي معلومات الرحالة والتجار والبحارة، وأرسل مبعوثين ليقبسوا المسافات. ثم صنع خريطة للعالم المعروف من فضة، وكتب معها كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، الذي قَسَم فيه العالم إلى سبعين خريطة جزئية. وكانت خرائطه مقلوبة بالنسبة لنا: الجنوب في الأعلى والشمال في الأسفل، كما كان معتاداً في الخرائط الإسلامية. وظلت أدق خريطة للعالم قروناً.

٣ ابن عربي (560-638هـ): الشيخ الأكبر

وُلد في مرسية بالأندلس، وتنقّل في المغرب ثم المشرق، واستقر في دمشق ومات فيها.

لقاؤه بابن رشد

في شبابه، طلب ابن رشد أن يراه لأنه سمع عن تجاربه الروحية. فلما دخل عليه، قال له ابن رشد: نعم. فقال ابن عربي: نعم. فسُرَّ ابن رشد. ثم شعر ابن عربي بما سرّه فقال: لا. فتغيّر لون ابن رشد وانقبض. وكأن ابن عربي يقول له: العقل يصل إلى شيء من الحقيقة، لكن ليس إليها كلها.

وحضر ابن عربي جنازة ابن رشد بعد سنوات. ورأى نعشه على دابة، وفي الجانب الآخر كتبه لتوازنه، فقال ما معناه: هذا الإمام في جانب، وأعماله في الجانب الآخر، فليت شعري هل تحققت آماله؟

أثره

كتب "الفتوحات المكية"، موسوعة ضخمة في التصوف، و"فصوص الحكم". وهو من أكثر الشخصيات إثارة للخلاف في التاريخ الإسلامي: يعدّه الصوفية "الشيخ الأكبر"، بينما انتقده علماء كثيرون بشدة، أشهرهم ابن تيمية، بسبب أفكار تُنسب إليه في العلاقة بين الخالق والمخلوق.

وحين فتح السلطان العثماني سليم الأول دمشق سنة 1516م، بنى على قبره مسجداً وضريحاً ما زال قائماً.

٤ المشرق: العقل والنص والروح

فخر الدين الرازي (544-606هـ)

متكلم ومفسر من مدينة الري، استقر في هراة. كتب "مفاتيح الغيب"، المعروف بـ"التفسير الكبير"، وهو تفسير ضخم يناقش فيه الآيات بالعقل والمنطق والعلوم، ويعرض اعتراضات الخصوم ثم يجيب عنها. وكانت مناظراته شهيرة، وكثر أعداؤه، ويقال إنه مات مسموماً على أيديهم.

الشهرستاني (ت 548هـ)

كتب "الملل والنحل"، الذي عرض فيه أديان العالم وفرقه ومذاهبه الفلسفية عرضاً موضوعياً دقيقاً، فصار مرجعاً في تاريخ الأديان.

ابن الجوزي (ت 597هـ)

واعظ بغداد الأشهر، كانت مجالسه تجمع عشرات الآلاف، ويقال إن مؤلفاته تجاوزت ثلاثمئة كتاب. ومن أجملها "صيد الخاطر"، خواطر وتأملات في الحياة والنفس، كتبها كما تخطر له.

عبد القادر الجيلاني (470–561هـ)

فقيه وواعظ في بغداد، وإليه تُنسب الطريقة القادرية، التي انتشرت في العالم الإسلامي كله، ومنه المغرب العربي.

السهروردي المقتول (ت 587هـ)

فيلسوف شاب أسس "فلسفة الإشراق"، التي ترى أن المعرفة الحقيقية نور يُشرق على النفس، لا مجرد استدلال منطقي. ذهب إلى حلب، وأصبح مقرباً من حاكمها الشاب الظاهر، ابن صلاح الدين. فاتهمه الفقهاء بالزندقة، وأمر صلاح الدين بقتله، فُقُتل في السجن وهو في نحو السادسة والثلاثين. ولهذا يُلقَّب "المقتول"، تمييزاً له عن صوفيين آخرين بالاسم نفسه.

جلال الدين الرومي (604–672هـ)

وُلد في بلخ في أفغانستان اليوم، وهربت أسرته منها قبيل وصول المغول، فاستقرت في قونية بالأناضول. كان فقيهاً معروفاً، حتى التقى بالدرويش الجوّال شمس التبريزي، فانقلبت حياته وصار شاعراً صوفياً. وكتب "المثنوي" بالفارسية، في نحو خمسة وعشرين ألف بيت، وهو اليوم من أكثر الشعراء قراءةً في العالم.

٥ الطب والهندسة: تدي القدماء

عبد اللطيف البغدادي (557–629هـ): العين قبل الكتاب

كان الأطباء يثقون في جالينوس ثقة شبه مطلقة. وفي سنة 597هـ ضربت مصر مجاعة رهيبة، فتكدّست هياكل الموتى على تل خارج القاهرة. فذهب عبد اللطيف ومعه طلابه وفحص آلاف العظام بعينه. فاكتشف أن الفك السفلي عظمة واحدة، لا عظمتان كما قال جالينوس، وصحح أخطاء أخرى. وقال ما معناه: إن المشاهدة أصدق من قول جالينوس، مهما كان عظيماً.

الجزري (ت نحو 602هـ): مهندس الآلات

عمل في بلاط الأرتقيين في ديار بكر بتركيا اليوم. وألّف "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل"، ووصف فيه خمسين آلة برسوم مفصلة، تكفي لإعادة صنعها:

- ◆ "ساعة الفيل": ساعة مائية ضخمة على شكل فيل، تتحرك فيها التماثيل لتعلن الوقت.
- ◆ آلات لرفع الماء استعمل فيها آليات تحوّل الحركة الدائرية إلى حركة مستقيمة، وهي فكرة قريبة مما ستقوم عليه المحركات بعد قرون.
- ◆ فرقة موسيقية آلية تعزف وحدها على قارب، ويمكن تغيير إيقاعها.

ابن النفيس (607–687هـ): اكتشاف الدورة الدموية الصغرى

وُلد في دمشق، وصار رئيس أطباء مصر، وعمل في البيمارستان المنصوري بالقاهرة، أكبر مستشفى في عصره.

كان الأطباء يعتقدون مع جالينوس أن الدم ينتقل مباشرة بين جانبي القلب عبر ثقب خفية في الحاجز الذي يفصلهما. فقال ابن النفيس في كتابه "شرح تشريح القانون" إنه لا توجد ثقب، وإن الحاجز مصمت. وإن الدم يخرج من الجانب الأيمن للقلب إلى الرئتين، فيختلط هناك بالهواء، ثم يعود إلى الجانب الأيسر.

وهذا هو وصف الدورة الدموية الصغرى، قبل أن يصفها الأوروبيون بنحو ثلاثة قرون. لكن اكتشافه بقي مجهولاً، حتى عثر طبيب مصري سنة 1924م على مخطوطته في مكتبة برلين.

وكتب ابن النفيس أيضاً قصة فلسفية بعنوان "الرسالة الكاملية"، رداً على "حي بن يقظان". وأوقف بيته ومكتبته على البيمارستان المنصوري. وتقول الرواية إنه في مرض موته، نصحه الأطباء بشرب قليل من الخمر دواءً، فرفض.

التاريخ والجغرافيا

٦

العالم	الكتاب	ما يميزه
ابن الأثير (555-630هـ)	الكامل في التاريخ	تاريخ عام إلى سنة 628هـ، وفيه شهادة معاصرة عن الحروب الصليبية واجتياح المغول
ياقوت الحموي (ت 626هـ)	معجم البلدان	موسوعة جغرافية مرتبة على حروف المعجم. وكان ياقوت عبداً رومي الأصل، اشتراه تاجر وعلمه، ثم أعتقه
ابن خلكان (ت 681هـ)	وفيات الأعيان	تراجم لنحو ثمانمئة من أعلام الحضارة الإسلامية، بأسلوب دقيق ممتع

ويروي ابن الأثير أنه بقي سنوات متردداً في الكتابة عن المغول، لأنه لم يحتمل أن يكتب عن تلك الكارثة. ثم كتب بما معناه: يا ليت أُمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا. ووصف ما حدث بأنه أعظم مصيبة أصابت البشرية منذ خلقها الله.

العالم والسلطان: الصدام مستمر

٧

العالم	السلطان	ما حدث
ابن رشد	الخليفة الموحي يعقوب المنصور	نُفي وأُحرقت كتبه، ثم عُفي عنه
السهروردي	صلاح الدين	قُتل بتهمة الزندقة
العز بن عبد السلام (577-660هـ)	أمراء المماليك	أُفتى بأن الأمراء المماليك ما زالوا عبيداً لم يُعتقوا، فلا تصح تصرفاتهم حتى يُباعوا ويُعتقوا. وأصّر على بيعهم في مزاو علي، وتبرع بثمنهم للمسلمين. ولُقب "سلطان العلماء"
العز بن عبد السلام	قطز، قبل عين جالوت	رفض أن تُفرض ضرائب على الناس لتمويل الحرب، حتى يتخلى الأمراء أولاً عن ثرواتهم

العالم	السلطان	ما حدث
النووي (631-676هـ)	الظاهر بيبرس	رفض أن يفتي بجمع الضرائب من الناس، وكتب إليه رسائل شديدة. وكان بيبرس يقول إنه يهابه

والنووي هذا هو صاحب "رياض الصالحين" و"الأربعين النووية"، التي ما زالت تُحفظ في كل مكان. ومات وهو في الخامسة والأربعين، ولم يتزوج، لانشغاله بالعلم.

الكارثة المغولية

٨

حين اجتاحت المغول العالم الإسلامي الشرقي، كانت خسارة العلم هائلة:

- ◆ دُمّرت مكتبات مدن خراسان العظيمة: مرو ونيسابور وبخارى.
- ◆ ثم سقطت بغداد سنة 656هـ، ودُمّرت مكتباتها.
- ◆ قُتل آلاف العلماء والطلاب، وفرّ من نجا إلى الشام ومصر والأناضول والهند.

وكان ياقوت الحموي في مرو حين وصل المغول، وكان يصف مكتباتها بأنها لا مثيل لها في الدنيا. ففرّ منها بما استطاع حمله.

المفارقة: نصير الدين الطوسي (597-672هـ)

ومن قلب الكارثة خرجت مفاجأة. كان الطوسي عالماً فلكياً ورياضياً، يعيش في قلاع الإسماعيلية النزارية في الموت. فلما دمرها هولاكو سنة 654هـ، انضم الطوسي إليه مستشاراً، ورافقه في حملته على بغداد. وما زال موقفه هذا موضع جدل كبير بين المؤرخين.

لكنه أقنع هولاكو ببناء مرصد ضخم في مراغة، في شمال غرب إيران، سنة 657هـ. وجمع فيه علماء من الصين إلى الشام، ومكتبة ضخمة تقول المصادر إنها بلغت أربعمئة ألف مجلد، كثير منها أنقذ من المدن المنكوبة.

وفي هذا المرصد:

- ◆ ابتكر الطوسي ما يُعرف بـ"مزدوجة الطوسي"، وهي طريقة رياضية لتفسير حركة الكواكب دون أخطاء نموذج بطليموس. ووجد المؤرخون في كتب كوبرنيكوس بعد قرنين أداة مطابقة لها تماماً، وما زالوا يبحثون كيف وصلت إليه.
 - ◆ جعل علم المثلثات علماً مستقلاً عن الفلك لأول مرة.
 - ◆ وضع "الزيج الإيلخاني"، جداول فلكية دقيقة.
- وهكذا، حتى في أحلك اللحظات، وجد العلم طريقاً للبقاء.

هل أسلم المغول بعد ذلك؟ كيف؟ وهل ندموا؟

نعم، أسلم أغلبهم، وبسرعة مذهلة

بعد موت الخان الأعظم مونكه سنة 1259م، انقسمت الإمبراطورية المغولية إلى أربع دول. وكان مصير الدين في كل واحدة مختلفاً:

الخانية	المنطقة	المصير الديني
القبيلة الذهبية	روسيا وسهوب أوروبا الشرقية	أسلم خانها بركة قبل سقوط بغداد نفسه، ثم صارت الدولة مسلمة تماماً في عهد أوزبك خان (1313م)، الذي يقال إن الأوزبك شقوا باسمه
الإيلخانية	إيران والعراق، دولة أحفاد هولاكو	أسلم الإيلخان غازان سنة 694هـ/1295م، أي بعد 39 سنة فقط من تدمير بغداد، وجعل الإسلام دين الدولة
الجغتائية	آسيا الوسطى	أسلم خاناتها في القرن الرابع عشر، ومن رحمها خرج تيمورلنك
اليوان	الصين	لم تُسلم، فقد مال قوبلاي خان إلى البوذية، لكن مسلمين كثيرين خدموا فيها ولاءً وموظفين

وأحفاد المغول المسلمون أسسوا لاحقاً دولاً إسلامية كبرى: خانية القرم التي صارت تابعة للعثمانيين، ودولة المغول في الهند، التي أسسها بابر، حفيد تيمورلنك وجنكيز خان، وبنى أحفاده تاج محل.

كيف أسلموا؟

- 1. كانوا أقلية صغيرة تحكم ملايين المسلمين:** لم يكن عددهم يكفي لإدارة هذه البلاد، فاعتمدوا على موظفين ووزراء فرس مسلمين، فذابوا تدريجياً في ثقافة رعاياهم.
- 2. جيوشهم تتركت:** معظم جنود الجيش "المغولي" في الغرب كانوا في الحقيقة من القبائل التركية، وكثير منهم مسلمون أصلاً.
- 3. الصوفية:** كان لشيوخ الطرق الصوفية الدور الأكبر. فالمغول كانوا يحترمون "الشامان"، أي الرجل الروحاني صاحب الكرامات في دينهم القديم، فوجدوا في الدراويش شيئاً مألوفاً. وقد أسلم بركة على يد شيخ صوفي من بخارى، وأسلم غازان على يد شيخ صوفي آخر.
- 4. التسامح الديني:** كان جنكيز خان لا يفرض ديناً على أحد، فلم يكن هناك ما يمنع المغول من اعتناق دين رعاياهم.
- 5. السياسة:** أسلم غازان وهو يصارع ابن عمه على العرش، فكان إسلامه وسيلة لكسب أمراء الجيش المسلمين أيضاً، وليس إيماناً فقط.

وهذه الظاهرة تطابق ما سيشرحه ابن خلدون بعد قرن: البدو الغزاة يملكون القوة العسكرية، لكنهم ينتهون إلى الذوبان في حضارة الشعوب المستقرة التي غزوها.

هل ندموا على بغداد؟

الجواب معقد، وفيه ثلاث صور مختلفة:

١. **هولاكو نفسه لم يندم.** مات سنة 663هـ/1265م على غير الإسلام، وكانت زوجته المفضلة نصرانية تميل إلى حماية النصارى. ولم يُعرف عنه أي ندم.

٢. **أول من استنكر كان مغولياً.** بركة خان، ابن عم هولاكو المسلم، غضب غضباً شديداً من تدمير بغداد وقتل الخليفة. وثرى عنه أقوال بمعنى أن هولاكو خرب مدن المسلمين وقتل الخليفة دون مشورة أهله، وأنه سيحاسبه على تلك الدماء البريئة. وفعلاً، اندلعت سنة 1262م أول حرب بين المغول أنفسهم، فهزم هولاكو أمام بركة. وتحالف بركة مع السلطان المملوكي بيبرس ضد ابن عمه. ولولا انشغال هولاكو بهذه الحرب، ربما عاد لينتقم من هزيمة عين جالوت.

٣. **أحفاد هولاكو أسلموا، لكنهم لم يعتذروا.** بعد إسلامه، بنى غازان المساجد والمدارس والمستشفيات، وقرّب العلماء. وكتب وزيره رشيد الدين، وهو طبيب من أصل يهودي أسلم، "جامع التواريخ"، الذي يعدّه المؤرخون أول تاريخ للعالم كله. لكن الرواية الرسمية في بلاطهم كانت تميل إلى تبرير ما فعله جدهم هولاكو، لا إلى إدانته.

بل إن غازان نفسه، وهو مسلم، غزا الشام المملوكية سنة 699هـ ودخل دمشق. ولهذا شكّ المماليك وعلمائهم في صدق إسلام المغول، لأنهم ظلوا يحكمون بـ"الياسا"، قانون جنكيز خان. وأفتى ابن تيمية بوجوب قتالهم رغم نطقهم بالشهادتين، كما سنرى في الفصل القادم.

وبعدهم جاء تيمورلنك، وكان مسلماً يصلي ويقرّب العلماء. ومع ذلك ارتكب مذابح مروعة في أصفهان ودلهي وبغداد ودمشق. فالإسلام لم يُنه وحشية الغزاة.

الخلاصة

لم يكن هناك "ندم" بالمعنى الذي نتخيله، أي اعتذار أو اعتراف بالخطأ. لكن ما حدث كان أعمق ربما: الأحفاد الذين دمر أجدادهم بغداد، صاروا هم أنفسهم من رعاة الحضارة الإسلامية. فمن تبريز الإيلخانية، إلى سمرقند وهراة التيموريتين، إلى دلهي وأغرا في الهند، بنى أحفاد المغول بعضاً من أجمل ما في تراث الإسلام.



عصر الهالك وا بن خلدون

حفظ الكنوز، وا بن بطوطة، وولادة علم الاجتماع

القرون 7-9 هـ · القرون 13-15 م

« إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على الإخبار، وفي باطنه نظر وتحقيق. »

ابن خلدون، المقدمة

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|---|---|---|
| ١ | عصر حفظ الكنوز | ٥ | العلوم: حتى بعد المغول |
| ٢ | ابن تيمية ومدرسته | ٦ | غرناطة: الشمعة الأخيرة في الأندلس |
| ٣ | عصر الموسوعات | ٧ | ابن خلدون (732-808 هـ): مؤسس علم الاجتماع |
| ٤ | ابن بطوطة (703-770 هـ): أعظم رحالة في التاريخ | | |

١ عصر حفظ الكنوز

بعد عين جالوت، صارت القاهرة ودمشق قلب العالم الإسلامي، وفرَّ إليهما العلماء من كل مكان: من العراق وخراسان هرباً من المغول، ومن الأندلس هرباً من حروب الاسترداد.

وكان العلماء قد رأوا بأعينهم مكتبات بغداد ومرو تُحرق، فخافوا أن يضيع العلم كله. فصار هذا العصر عصر "الموسوعات والشروح": جمع كل ما قيل في كل علم، في كتب ضخمة تحفظه للأجيال.

وأنفق سلاطين المماليك وأمرؤهم بسخاء على المدارس والمساجد والمستشفيات، فامتألت القاهرة بمدارس فخمة ما زال كثير منها قائماً. وكان السبب جزئياً أن المماليك كانوا عبيداً سابقين، غرباء عن البلاد ولا يتكلمون العربية جيداً أحياناً. فكانوا يكسبون شرعيتهم ومحبة الناس برعاية العلم والعلماء.

٢ ابن تيمية ومدرسته

ابن تيمية (661-728هـ): العالم المقاتل

وُلد في حرّان، وحين كان في السادسة اقترب المغول من المدينة، فهربت أسرته إلى دمشق ليلاً، وهم يجرون مكتبتهم على عربة. وكاد المغول يلحقون بهم.

نشأ نابغة، فصار يفتي ويدرس في شبابه. وعاش حياة مليئة بالمواجهة:

♦ **مع المغول:** ذهب سنة 699هـ إلى غازان بنفسه، وكلّمه بشدة. ثم فاوض قائده على إطلاق الأسرى، فعرض عليه القائد إطلاق المسلمين فقط. فرفض ابن تيمية، وأصرّ على إطلاق الأسرى النصارى واليهود من أهل دمشق أيضاً، لأنهم من أهل الذمة الذين يجب حمايتهم. ويذكر هذه القصة بنفسه في رسالة كتبها إلى ملك قبرص.

♦ **في ساحة الحرب:** شارك في معركة شقحب سنة 702هـ التي هُزم فيها المغول. وأفتى الجنود بالفطر في رمضان ليقووا على القتال، وأكل أمامهم ليطمئنوا.

♦ **مع الفقهاء والسلطة:** خالف كثيراً من علماء عصره في مسائل العقيدة والفقه، فسُجن مرات عدة في القاهرة والإسكندرية ودمشق. ومات في سجن قلعة دمشق، وخرجت في جنازته حشود هائلة.

ومن أهم كتبه "مجموع الفتاوى"، و"درء تعارض العقل والنقل"، الذي أراد فيه إثبات أن العقل الصحيح لا يتعارض مع النص الصحيح، و"الرد على المنطقيين"، و"السياسة الشرعية".

وما زال ابن تيمية من أكثر العلماء تأثيراً وإثارة للجدل حتى اليوم. يعدّه أنصاره مجدداً أعاد الناس إلى منهج السلف، وينتقده علماء كثيرون في عصره وبعده، خاصة الأشاعرة والصوفية، في موافقه من العقيدة والتصوف.

تلاميذه ومعاصروه

العالم	أشهر كتبه	ما يميزه
ابن قيم الجوزية (691-751هـ)	زاد المعاد، مدارج السالكين، إعلام الموقعين	أقرب تلاميذه إليه، وشجن معه. وكتب "روضة المحبين" في الحب، الذي يمكن أن تقرأه بعد "طوق الحمامة" لتري نظرة عالم مشرقي إلى الموضوع نفسه
ابن كثير (701-774هـ)	تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية	تفسيره من أكثر التفاسير انتشاراً اليوم، وتاريخه يبدأ من خلق العالم إلى عصره
الذهبي (673-748هـ)	سير أعلام النبلاء، تاريخ الإسلام	صديق ابن تيمية ومعاصره. ترجم في "السير" لآلاف العلماء، بنقد منصف حتى لمن يخالفهم

عصر الموسوعات

٣

الكتاب	المؤلف	ما يجمعه
لسان العرب	ابن منظور (630-711هـ)	أضخم معجم عربي، نحو ثمانين ألف مادة، جمع فيه خمسة معاجم سابقة
القاموس المحيط	الفيروزآبادي (729-817هـ)	معجم مختصر ودقيق، اشتهر حتى صارت كلمة "قاموس" تعني كل معجم
نهاية الأرب في فنون الأدب	النوري (677-733هـ)	موسوعة في أكثر من ثلاثين مجلداً، تجمع الجغرافيا والطبيعة والأدب والتاريخ
صبح الأعشى	القلقشندي (756-821هـ)	موسوعة في أربعة عشر مجلداً لكتاب الدواوين، فيها كل ما يحتاجه الموظف من جغرافيا وتاريخ ونماذج رسائل
مغني اللبيب	ابن هشام الأنصاري (708-761هـ)	من أعمق كتب النحو، حتى قال ابن خلدون إنه ظهر في مصر عالم بالعربية أنقى من سيبويه

أئمة الحديث الأخيرون

- ♦ ابن حجر العسقلاني (773-852هـ): قاضي قضاة مصر، قضى نحو خمس وعشرين سنة في كتابة "فتح الباري"، أعظم شرح لصحيح البخاري. ولما أتمه، أقام احتفالاً كبيراً حضره العلماء والأمراء.
- ♦ جلال الدين السيوطي (849-911هـ): من أغزر العلماء تأليفاً في التاريخ، بمئات الكتب في كل العلوم. ولما بلغ الأربعين، اعتزل الناس في بيته بجزيرة الروضة على النيل، وتفرغ للكتابة. وأكمل "تفسير الجلالين" الذي بدأه أستاذه المحلي، في أربعين يوماً حسب الرواية. وسُمي "الجلالين" لأن المؤلفين كلاهما يُلقَّب "جلال الدين".

ابن بطوطة (703-770هـ): أعظم رحالة في التاريخ

خرج من طنجة سنة 725هـ وهو في الحادية والعشرين، يريد الحج فقط. فلم يعد إلا بعد نحو ربع قرن، وقد قطع ما يُقدَّر بأكثر من مئة ألف كيلومتر.

المحطة	ما حدث فيها
مصر والشام والحجاز	بداية الرحلة، وحج عدة مرات
العراق وفارس والأناضول	وصف بلاد الإيلخانيين المسلمين بعد غازان
سهوب القبيلة الذهبية	زار أوزبك خان المسلم، ووصل إلى القسطنطينية
الهند	عُيِّنَ سلطان دلهي قاضياً، وبقي نحو ثماني سنوات
جزر المالديف	صار قاضياً فيها وتزوج
الصين	وصل إلى موانئها ووصف تجارتها
الأندلس ومالي	بعد عودته، زار غرناطة، ثم عبر الصحراء إلى إمبراطورية مالي الإسلامية في إفريقيا

ولما عاد نهائياً، أمر السلطان المريني أبو عنان في فاس أن يُملي رحلته على الكاتب ابن جُزِّي، فكانت "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وهي اليوم مصدر لا يُعوَّض عن العالم في القرن الرابع عشر، من إفريقيا إلى الصين.

وقفة · سؤال وجواب

هل أحبّ ابن بطوطة الصوفية؟ وهل تحدّث عنهم؟

نعم، أحبهم كثيراً، ورحلته مليئة بهم. وكانت الزوايا الصوفية بالنسبة إليه أشبه بشبكة فنادق عبر العالم الإسلامي: ينزل فيها ضيفاً، فيُطعم ويكرم مجاناً.

الرحلة بدأت بنبوءة صوفية

♦ في الإسكندرية، في أول رحلته، زار شيخاً صوفياً اسمه برهان الدين الأعرج. فقال له الشيخ: أراك تحب السياحة في البلاد. فلما قال نعم، قال له: لا بد أن تزور إخواني: فريد الدين في الهند، وركن الدين في السند، وبرهان الدين في الصين، فأبلغهم مني السلام. ويقول ابن بطوطة إنه لم يكن ينوي الذهاب إلى تلك البلاد، لكنه التقاهم فعلاً بعد سنوات، وأبلغهم السلام.

♦ وفي مصر، رأى في منامه أنه على جناح طائر عظيم يطير به نحو الشرق ثم الجنوب ثم بعيداً. ففسّر له الشيخ المرشدي الرؤيا بأنه سيحج، ثم يزور اليمن والعراق وبلاد الترك والهند، ويبقى فيها طويلاً.

محطات صوفية في رحلته

- ♦ **في العراق:** وصف الدراويش الرفاعية، وهم يدخلون النار المشتعلة ويرقصون فيها، ويأكلون الأفاعي، دون أن يصيبهم أذى.
- ♦ **في الأناضول:** أعجب كثيراً بجماعات "الأخية الفتيان"، وهي جمعيات من الحرفيين الشبان تقوم على مبادئ الفتوة، يتنافسون في إكرام الغرباء.
- ♦ **في الهند:** حين غضب عليه سلطان دلهي، خاف على حياته، فترك كل شيء، ووزّع ما يملك، ولزم شيخاً صوفياً في خلوة قرب دلهي خمسة أشهر، يصوم ويتعبد. ثم استدعاه السلطان وأرسله سفيراً إلى الصين.
- ♦ **في البنغال:** قطع رحلة شاقة ليلقى الولي الشهير شاه جلال.

لكنه لم يكن صوفياً فقط

كان فقيهاً مالكيًا، وعمل قاضياً في الهند والمالديف. ومن طرائف رحلته أنه روى أنه رأى ابن تيمية في دمشق يخطب على المنبر، ونسب إليه قولاً في العقيدة انتقده. لكن المؤرخين يشكّون في هذه القصة، لأن ابن تيمية كان في السجن حين وصل ابن بطوطة إلى دمشق. وهذا مثال على أن الرحلة، رغم قيمتها الكبيرة، فيها أخبار سمعها ابن بطوطة ثم رواها كأنه رآها، وأشياء رتبها كاتبه ابن جُزّي.

٥ العلوم: حتى بعد المغول

ابن الشاطر (704-777هـ): الفلكي الذي سبق كوبرنيكوس

كان "الموقت" في الجامع الأموي بدمشق، أي المسؤول عن ضبط أوقات الصلاة. وصنع ساعة شمسية ضخمة ما زالت نسخة منها على مئذنة الجامع.

لكن إنجازه الأكبر كان نماذج رياضية جديدة لحركة القمر والكواكب، تتخلص من أخطاء بطليموس. واكتشف المؤرخون في القرن العشرين أن نموذج حركة القمر مطابق تقريباً لما وضعه كوبرنيكوس بعده بنحو قرن ونصف. ومثل "مزوجة الطوسي"، ما زال الباحثون يحاولون فهم كيف وصلت هذه الأفكار إلى أوروبا.

سمرقند: أحفاد تيمورلنك يرعون العلم

- ♦ **ألف بك (796-853هـ):** حفيد تيمورلنك، وحاكم سمرقند. وكان هو نفسه عالم فلك. بنى مرصداً ضخماً، وصنع فهرساً لنحو ألف نجم، وقاس طول السنة بدقة مذهلة. لكن ابنه قتله طمعاً في الحكم.
- ♦ **غياث الدين الكاشي (ت 832هـ):** عمل في مرصد ألف بك، وحسب قيمة "ط" (π) إلى ست عشرة خانة عشرية، وهو رقم لم يتجاوز إلا بعد نحو قرنين. وطوّر استعمال الكسور العشرية.

وهذا جواب آخر عن سؤال المغول: حفيد تيمورلنك، الذي دمرّ جده دمشق وبغداد، صار من أعظم رعاة العلم في القرن الخامس عشر.

وقفة · سؤال وجواب

ما هو العدد π (ط)؟

هو النسبة بين محيط أي دائرة وقطرها. خذ أي دائرة، صغيرة كانت أو بحجم الأرض، واقسم محيطها على قطرها، فستجد دائماً العدد نفسه: 3.14159... وأرقامه بعد الفاصلة لا تنتهي أبداً ولا تتكرر بنمط ثابت. ونحتاجه في كل حساب فيه دوائر: مساحات، أفلاك الكواكب، هندسة الآلات.

وحسبه الكاشي بطريقة عبقرية: رسم داخل الدائرة مضلعاً بأكثر من ثمانمئة مليون ضلع، فصار المضلع شبه منطبق على الدائرة، ثم حسب محيطه. ووصل إلى 3.1415926535897932، أي ست عشرة خانة صحيحة. وكان هدفه، كما قال، أن يكون الحساب دقيقاً لدرجة أن الخطأ في محيط دائرة بحجم الكون كله لا يتجاوز عرض شعرة.

وقفة · سؤال وجواب

من أسس سمرقند في البداية؟

لا أحد يعرف مؤسساً واحداً لها، فهي من أقدم مدن العالم المأهولة، عمرها نحو 2700 سنة. وتربط الأساطير الفارسية تأسيسها بملوك أسطوريين قداماء.

العصر	ما حدث
نحو القرن السابع قبل الميلاد	أسسها الصغدليون، شعب إيراني من التجار، على تل يسمى اليوم "أفراسياب"، وصارت عاصمة بلادهم "الصغد"
329 ق.م	دخلها الإسكندر الأكبر، وسقاها الإغريق "ماراكاندا". وفيها قتل الإسكندر صديقه المقرّب كليتوس بيده وهو سكران، في نوبة غضب
قرون طويلة	صارت محطة كبرى على طريق الحرير بين الصين وفارس، وكان الصغدليون تجار هذا الطريق
93هـ/712م	فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي، كما رأينا في القصة الأموية
بعد 751م	صار "ورق سمرقند" أشهر ورق في العالم الإسلامي، ومنها انتقلت صناعته إلى بغداد
617هـ/1220م	دمرها جنكيز خان تدميراً شبه كامل، فهجر التل القديم، ونشأت المدينة الجديدة جنوبه
1370م	جعلها تيمورلنك عاصمته، وجلب إليها الحرفيين من كل البلاد التي غزاها، فبنى جامع بيبي خانم، وضريحه "كور أمير"

العصر	ما حدث
القرن 15م	حفيدة ألغ بك بنى فيها مدرسته ومرصده، فصارت عاصمة العلم في آسيا الوسطى

واليوم هي في أوزبكستان. وفيها مقبرة "شاه زنده"، التي تقول الرواية إن فيها قبر قثم بن العباس، ابن عم النبي ﷺ. وقربها قبر الإمام البخاري، الذي رأيناه في الفصل الخامس.

الرياضيات في المغرب

- ♦ ابن البناء المراكشي (654-721هـ): كتب "تلخيص أعمال الحساب"، الذي ظل يُدرّس قروناً في المغرب.
- ♦ القلصادي (815-891هـ): وُلد في الأندلس، وتنقّل في المغرب، ومات في تونس. واستعمل رموزاً مختصرة للمجهول والعمليات في الجبر، بدل كتابتها كلمات كاملة، وهي خطوة مهمة نحو الكتابة الرياضية الحديثة.

الطاعون الأسود ومعركة العدوى

سنة 749هـ/1348م ضرب الطاعون الأسود العالم كله، فمات ثلث سكان أوروبا والشرق الأوسط تقريباً. وكان كثيرون يرون أن المرض لا ينتقل بالعدوى، وأنه قضاء محض.

فكتب طبيبان أندلسيان، لسان الدين بن الخطيب وابن خاتمة، رسائل تثبت بالملاحظة أن المرض ينتقل بالمخالطة: من لمس ثياب المريض وأوانيهم مرض، ومن اعتزل الناس نجا. وقال ابن الخطيب ما معناه: إن ما يثبت بالتجربة والمشاهدة لا يُردّ.

6 غرناطة: الشمعة الأخيرة في الأندلس

بقيت مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس أكثر من قرنين ونصف، وكان فيها علم كثير:

العالم	ما فعله
لسان الدين بن الخطيب (713-776هـ)	وزير غرناطة وطبيبها وشاعرها ومؤرخها، صاحب رسالة الطاعون. لكن خصومه اتهموه بالزندقة، ففرّ إلى المغرب، فقبض عليه وقتل خنقاً في سجن فاس
أبو إسحاق الشاطبي (ت 790هـ)	كتب "الموافقات"، أهم كتاب في "مقاصد الشريعة": أي أن للأحكام أهدافاً كبرى، هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ويجب فهم الأحكام في ضوءها
ابن زمرك (733-797هـ)	تلميذ ابن الخطيب ثم خصمه، وأشعاره منقوشة إلى اليوم على جدران قصر الحمراء

حياة مضطربة

وُلد في تونس لأسرة أندلسية من إشبيلية. وفي السابعة عشرة، قتل الطاعون الأسود والديه وأغلب أساتذته. ثم عاش حياة سياسية عاصفة، يتنقل بين بلاطات المغرب والأندلس:

- ♦ في فاس: عمل عند السلطان المريني، ثم سُجن نحو سنتين بتهمة التآمر.
- ♦ في غرناطة: أرسله سلطانها سفيراً إلى ملك قشتالة المسيحي في إشبيلية، مدينة أجداده. فعرض عليه الملك أن يبقى عنده ويعيد إليه أملاك أسرته، فرفض.
- ♦ في بجاية: صار حاجباً، أي رئيس وزراء.
- ♦ ثم بين القبائل في بسكرة والصحراء، يستميلها لهذا السلطان أو ذاك.

قلعة ابن سلامة: ولادة المقدمة

ثم تعب من السياسة. فلجأ سنة 776هـ إلى قلعة ابن سلامة، عند قبيلة أولاد عريف، قرب فرندة في ولاية تيارت بالجزائر اليوم. وبقي فيها نحو أربع سنوات، معتزلاً.

وفي تلك العزلة، كتب في نحو خمسة أشهر "المقدمة". وأراد أن تكون مجرد مقدمة لكتابه في التاريخ، فصارت أعظم من الكتاب كله.

◆ أطوار الدولة الخمسة عند ابن خلدون، عبر ثلاثة أجيال

١. الظفر والتأسيس

جماعة قوية التضامن تتزع الملك، الحاكم واحد من قومه ويشاركهم المجد

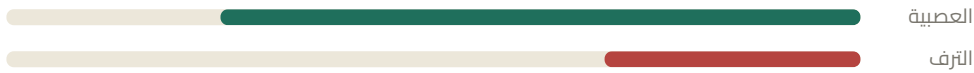


الجيل الأول

البداوة والخشونة

٢. الاستبداد بالملك

ينفرد الحاكم بالسلطة، ويُبعد أهل عصبية، ويعتمد على الموالي والجند المأجورين



الجيل الثاني

الحضارة

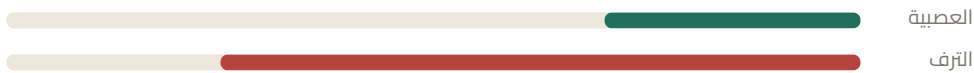
٣. الفراغ والدعة: ذروة الدولة

جني الثمار: جباية الأموال، وتشديد المدن والقصور والمساجد، ورعاية العلماء



٤. القنوع والمسالمة

تقليد الآباء دون تجديد، والرضا بما هو قائم

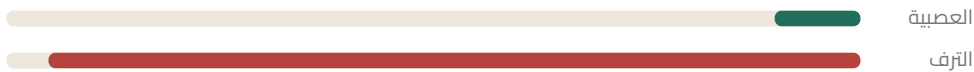


الجيل الثالث

الترف ونسيان
البداوة

٥. الإسراف والتبذير

إنفاق بلا حساب، وضرائب ثقيلة، وظلم يطرد الناس من العمل، الدولة تشيخ



جماعة جديدة قوية العصية تخرج من الأطراف، فتسقط الدولة الهرمة وتبدأ الدورة من جديد. عمر الدولة عند ابن خلدون نحو 120 سنة

■ العصية: قوة التضامن ■ الترف

أفكاره الكبرى

الفكرة	ماذا تعني
علم العمران	التاريخ ليس سرداً للأحداث، بل له قوانين يمكن دراستها، كقوانين الطبيعة. وهذه الفكرة هي بداية علم الاجتماع
العصية	الدول تقوم على قوة تضامن الجماعة، وتسقط حين يضعف هذا التضامن، كما ترى في المخطط أعلاه

الفكرة	ماذا تعني
البدو والحضارة	البدو أشجع وأقوى تضامناً، والحضر أغنى وأرقى صنعة. والبدو يغزون الحضر، ثم يتحضرون فيضعفون
تقليد الغالب	"المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب"، في لباسه وعاداته وأفكاره
الظلم مؤذن بخراب العمران	حين يظلم الحاكم الناس ويأخذ أموالهم، يتوقفون عن العمل والكسب، فتنهار الدولة نفسها
الضرائب	في بداية الدولة تكون الضرائب خفيفة فتجمع مالا كثيراً، وفي نهايتها تكون ثقيلة فتجمع مالا قليلاً، لأن الناس يتوقفون عن الإنتاج. ويذكره بعض الاقتصاديين المعاصرين كأحد أسلاف هذه الفكرة
نقد الأخبار	يجب فحص كل خبر تاريخي: هل هو ممكن عقلاً وواقعياً؟ وانتقد المؤرخين الذين ينقلون أرقاماً مستحيلة دون تفكير

وقال في وصف علم التاريخ عبارته الشهيرة:

« إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على الإخبار، وفي باطنه نظر وتحقيق. »

وجرّب نظرية ابن خلدون على القصص التي روينها: الأمويون حكموا نحو تسعين سنة، والعصر الذهبي العباسي امتد نحو مئة سنة قبل أن يسيطر الترك، والمرابطون والموحدون في المغرب سقط كل منهم بعد أجيال قليلة. فالنظرية تنطبق بشكل مدهش، وإن كانت هناك استثناءات، أشهرها العثمانيون الذين دام حكمهم أكثر من ستة قرون.

وقفة · سؤال وجواب

ماذا يقصد ابن خلدون بقوله: البدو أشجع، والحضر أغنى، والبدو يغزون الحضر ثم يتحضرون فيضعفون؟

أولاً، "البدو" عنده ليسوا سكان الصحراء العرب فقط. بل كل جماعة تعيش حياة خشنة على الأطراف: رعاة الصحراء، وقبائل الجبال، وسكان السهوب. فقبائل الأمازيغ في جبال الأطلس بدو عنده، والترك في السهوب بدو أيضاً. والكلمة عنده وصفٌ لنمط حياة، وليست شتيمة.

المقارنة

البدوي	الحضري
الحياة	خشنة، طعام قليل، تنقل، برد وحر
الحماية	مريحة، وفرة، بيوت وأسواق
	يحمي نفسه بسلاحه، فلا أسوار ولا شرطة
	تحميه الأسوار والجيش والدولة، فيتعود الاتكال عليهم

البدوي	الحضري
الشجاعة	عالية، لأنه يواجه الخطر كل يوم
التضامن	ضعيفة، لأنه لم يضطر أبداً للدفاع عن نفسه
الثروة والصنائع	قوي جداً، لأنه لا ينجو إلا بقيبلته
	ضعيف، كل واحد مشغول بتجارته ومصالحه
	غني، فيه الصناعات والفنون والعلوم
	فقير، لا حرف متقدمة

كيف تدور الدائرة؟

1. البدو أقوى عسكرياً، لأن عندهم الشجاعة والتضامن.
2. فيغزون المدن الغنية ويأخذون الحكم.
3. يسكنون القصور، ويتمتعون بالثروة. وأبناؤهم يولدون في الرفاهية، لا يعرفون الجوع ولا الحرب.
4. فتضعف شجاعتهم وتضامنهم جيلاً بعد جيل، ويصيرون "حضراً" بدورهم، فيستأجرون الجنود ليحموهم.
5. فتأتي جماعة بدوية جديدة، خشنة متضامنة، فتغزوهم، وتعيد الدورة.

المثال الذي عاشه ابن خلدون بنفسه

وهو تاريخ المغرب العربي:

- ◆ **المرابطون:** قبائل صنهاجة الملتزمة من الصحراء، أسسوا دولة عظيمة من السنغال إلى الأندلس. ثم تحصّروا في مراكش وقرطبة وضعفوا.
 - ◆ **فأسقطهم الموحدون:** قبائل مسمودة من جبال الأطلس. ثم تحصّروا هم أيضاً وضعفوا.
 - ◆ **فأسقطهم المرينيون في فاس، والزيانيون في تلمسان، والحفصيون في تونس:** قبائل زناتة الرعوية. وهم الذين خدمهم ابن خلدون نفسه.
- وينطبق هذا أيضاً على العرب الذين خرجوا من الصحراء فأسقطوا فارس والروم، ثم على الترك السلاجقة، ثم على المغول، كما رأينا.

وتطبيقها على العائلات

يقول ابن خلدون إن مجد الأسرة يدوم أربعة أجيال عادةً: الأول يبنيه بتعبه، والثاني عاشر أباه فيحافظ على المجد بفهمه، والثالث يقلّد فقط دون أن يفهم، والرابع يظن أن المجد حقٌّ له بالولادة، فيحتقر الأسباب التي صنعتها، فيهدمها. وهي فكرة يعرفها الناس اليوم في الشركات العائلية: الجد يؤسس، والابن يحافظ، والحفيد يضيّع.

وتنطبق بشكل مدهش على الشركات أيضاً: شركة ناشئة صغيرة، فريقها جائع ومتضامن ويعمل بلا راحة، تتغلب على شركات عملاقة غنية صارت بطيئة ومريحة. ثم تكبر هي بدورها، وتمتلى بالإدارات والرواتب المريحة، فتأتي شركة ناشئة جديدة وتتغلب عليها.

ليس حكماً أخلاقياً

ابن خلدون لا يقول إن البداوة خير والحضارة شر. فهو يعرف أن العلوم والصنائع لا تزدهر إلا في المدن، وهو نفسه عالم حضري. لكنه يصف قانوناً يراه طبيعياً، ويلخصه بعبارة بليغة: إن الحضارة "غاية العمران، ونهاية لعمره". أي أنها قمة ما تصل إليه الدولة، وهي في الوقت نفسه بداية نهايتها.

في مصر

انتقل إلى القاهرة سنة 784هـ، وصار قاضي قضاة المالكية فيها. وعُزل وأعيد ست مرات، لأنه كان صارماً يرفض الوساطات، فكثير أعداؤه. وفي سنة 786هـ، أرسل يطلب أسرته من تونس، فغرقت السفينة قرب الإسكندرية بكل من فيها: زوجته وأولاده ومكتبته.

اللقاء مع تيمورلنك

سنة 803هـ/1401م، حاصر تيمورلنك دمشق، وكان ابن خلدون فيها مع السلطان المملوكي. ثم عاد السلطان إلى مصر وترك المدينة. فأراد ابن خلدون أن يلقي تيمور، فأنزلوه من سور المدينة بالحبال، وذهب إلى معسكره.

وبقي عنده نحو خمسة وثلاثين يوماً، يحاوره في التاريخ والملوك والدول. وطلب منه تيمور أن يكتب له وصفاً للمغرب وبلاده، فكتبه. وقد يكون ابن خلدون رأى في تيمور مثلاً حياً لنظريته: قائد بدوي قوي العصبية، يكتسح الحضارات المستقرة.

المقريزي: التلميذ الاقتصادي

كان المقريزي (766-845هـ) تلميذ ابن خلدون في القاهرة. وكتب "الخطط"، أعظم كتاب في تاريخ القاهرة وأحيائها وآثارها. وكتب رسالة "إغاثة الأمة بكشف الغمة" بعد مجاعة كبرى، وأرجع فيها سببها لا إلى الطبيعة وحدها، بل إلى الفساد، وارتفاع الإيجارات، وإفساد العملة بإغراق الأسواق بالنقود النحاسية. وهو تحليل يبدو اليوم حديثاً جداً.

إرث ابن خلدون

بقيت المقدمة شبه منسية قروناً في العالم العربي، وإن كان العثمانيون قد قرأوها وترجموها. ثم اكتشفها الأوروبيون في القرن التاسع عشر، فدهشوا. ووصفها المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي بأنها أعظم عمل من نوعه أبدعه عقل في أي زمان أو مكان.



العصر العثماني ومفترق الطرق

سنان وتقي الدين وكاتب جلبي، والصدمة الكبرى

القرون 9-12 هـ · القرون 15-18 م

« المغلوب مولع أبداً بالاقْتداء بالغالب. »

ابن خلدون، المقدمة

في هذا الفصل

- | | | | |
|---|-------------------------------|---|-------------------------------------|
| ١ | مفترق الطرق | ٦ | المغرب العربي: علماء في زمن الأزمات |
| ٢ | البدايات: الفاتح يجمع العلماء | ٧ | في الشرق: إيران والهند |
| ٣ | الذروة: عصر سليمان | ٨ | لماذا تراجع العلم نسبياً؟ |
| ٤ | تقي الدين: المرصد الذي هُدم | ٩ | الصدمة: الجبرتي ونابليون |
| ٥ | القرن السابع عشر: أصوات تحدّر | | |

١ مفترق الطرق

هذا الفصل مختلف عن كل ما سبق. فيه يظل العلماء المسلمون يبدعون، لكن أوروبا تبدأ، لأول مرة، في التقدم بسرعة أكبر بكثير. والمخطط التالي يُظهر هذا الافتراق بوضوح.

◆ مفترق الطرق: الأحداث العلمية في العالم الإسلامي وأوروبا (1450-1800م)

أوروبا		العالم الإسلامي
غوتهبرغ يطبع الكتب بالحروف المتحركة	1450م	
	1470م	مدارس الصحن الثمان في إسطنبول، وعلي القوشجي يدرّس فيها
أول خريطة تحمل اسم "أمريكا" (1507)	1513-1507م	ييري ريس يرسم خريطة تُظهر سواحل الأمريكتين (1513)
كوبرنيكوس يضع الشمس في مركز الكون	1543م	
	1557م	سنان يكمل جامع السلمانية
مرصد تيخو براهي في الدنمارك	1576-1577م	مرصد تقي الدين في إسطنبول
كلبل يكتشف قوانين حركة الكواكب من أرصاد تيخو (1609)، وغاليليو يوجّه التلسكوب إلى السماء	1580-1609م	هدم مرصد إسطنبول
	1650م	كاتب جلبي يكتب "كشف الظنون"، ويشكو تراجع العلوم العقلية في المدارس
نيوتن يضع قانون الجاذبية	1687م	
	1727م	أول مطبعة عثمانية بالحروف العربية
الموسوعة الفرنسية	1751م	
1798م: حملة نابليون على مصر. الجبرتي يزور مختبر العلماء الفرنسيين في القاهرة، فيلتقي العالمان وجهاً لوجه		

■ إنجاز في العالم الإسلامي ■ انتكاسة ■ إنجاز في أوروبا

٢ البدايات: الفاتح يجمع العلماء

محمد الفاتح والصحن الثمان

بعد فتح القسطنطينية، بنى الفاتح حول مسجده ثمانى مدارس كبرى، تسمى "الصحن الثمان"، صارت أعلى مؤسسة علمية في الدولة. وكان هو نفسه شغوفاً بالعلم، يتكلم عدة لغات، ويقرأ في الجغرافيا والفلسفة، وطلب من عالم يوناني أن يرسم له خريطة

للعالم على طريقة بطليموس.

علي القوشجي (ت 879هـ): من سمرقند إلى إسطنبول

وهذا جواب آخر عن سمرقند: كان القوشجي تلميذ ألغ بك في مرصد سمرقند. فلما قُتل ألغ بك، رحل غرباً حتى وصل إلى إسطنبول، فاستقبله الفاتح استقبلاً عظيماً، وجعله أستاذاً في مدرسة آيا صوفيا. فنقل علوم سمرقند الفلكية والرياضية إلى العثمانيين.

وكتب فكرة جريئة لعصره: أن علم الفلك لا يحتاج إلى فلسفة أرسطو ليقوم عليها، وأن الأدلة الفلسفية لا تثبت أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها.

آق شمس الدين (ت 863هـ)

شيخ الفاتح ومربيه، وكان طبيباً أيضاً. ويذكر بعض الباحثين الأتراك أنه كتب عن "بذور" دقيقة لا تُرى، تنتقل من إنسان إلى آخر فتنتقل الأمراض، ويعتدون ذلك إشارة مبكرة إلى الميكروبات، وإن كان هذا التفسير موضع نقاش.

الذروة: عصر سليمان

٣

شيخ الإسلام أبو السعود (ت 982هـ)

كان أعلى سلطة دينية في عهد سليمان القانوني. ووفق بين قوانين السلطان والشرعية، فصار "القانون" العثماني يُطبَّق باعتباره متوافقاً مع الفقه الحنفي. وكتب تفسيراً مشهوراً هو "إرشاد العقل السليم".

طاشكبري زاده (ت 968هـ)

كتب "مفتاح السعادة"، موسوعة تصنّف كل العلوم المعروفة في عصره، نحو ثلاثمئة علم، وتشرح كل علم وأهم كتبه.

المعماري سنان (نحو 895–996هـ): عبقرى الحجر

كان صبيّاً من قرية مسيحية في الأناضول، أخذ في نظام الدوشيرمة، فصار إنكشارياً. وفي الحروب اشتهر ببناء الجسور والسفن بسرعة مذهلة. ثم صار كبير معماريي الدولة نحو خمسين سنة، وصمّم أكثر من ثلاثمئة مبنى: مساجد ومدارس وجسوراً وحمامات ومستشفيات.

ووصف حياته المهنية بنفسه بثلاث مراحل:

المرحلة	العمل	وصفه
التلمذة	جامع شهزاده في إسطنبول	عمل المتعلم
الإتقان	جامع السلليمانية في إسطنبول	عمل الصانع الماهر

المرحلة	العمل	وصفه
الأستاذية	جامع السليمية في أدرنة	تحفته الكبرى، بناه وهو في نحو الثمانين، بقبة تظاهي قبة آيا صوفيا

وصمم مبانيه لتقاوم الزلازل، وما زال أغلبها قائماً حتى اليوم في منطقة كثيرة الزلازل. وفي جامع السليمانية، تقول الرواية إنه صمم مجرى للهواء يجمع دخان آلاف الشموع في غرفة واحدة، ليُصنع منه حبر الخطاطين.

بيري ريس (ت 961هـ): خريطة العالم الجديد

أمير بحر عثماني، وابن أخ البحار الشهير كمال ريس. سنة 919هـ/1513م، أي بعد إحدى وعشرين سنة فقط من رحلة كولومبوس، رسم خريطة للعالم على جلد غزال، تُظهر سواحل أوروبا وإفريقيا وسواحل الأمريكتين. وكتب على حواشيها أنه جمعها من نحو عشرين خريطة قديمة، منها خريطة رسمها كولومبوس نفسه.

ولم يُعثر على هذه الخريطة إلا سنة 1929م، في مكتبة قصر طوبقابي. وألف أيضاً "كتاب البحرية"، دليلاً مفصلاً لموانئ البحر المتوسط وسواحله.

وانتهت حياته نهاية مؤلمة: قاد حملة في المحيط الهندي ضد البرتغاليين، فلم ينجح في فتح هرمز، فأعدم وهو في الثمانين تقريباً.

مطراقجي نصوح (ت نحو 971هـ)

رياضي ومؤرخ ورسام. رافق سليمان القانوني في حملاته، ورسم المدن التي مرّ بها بدقة مدهشة، كأنها صور من الجو: إسطنبول وبغداد وتبريز وحلب. فصارت رسومه وثائق تاريخية لشكل هذه المدن في القرن السادس عشر.

٤ تقّي الدين: المرصد الذي هُدم

الرجل

وُلد تقّي الدين الراصد (927–993هـ) في دمشق، ودرس في القاهرة. وصار كبير الفلكيين في الدولة العثمانية سنة 1571م.

المرصد

أقنع السلطان مراد الثالث ببناء مرصد ضخم في إسطنبول، فاكتمل سنة 1577م. وفي العام نفسه تقريباً، كان الفلكي الدنماركي تيخو براهي يبني مرصده في الدنمارك. مرصدان متشابهان، بأدوات متشابهة، في اللحظة نفسها.

وصنع تقّي الدين ساعات ميكانيكية دقيقة، واستعملها في الرصد، وكان من أوائل من قاسوا الوقت بالثواني في علم الفلك. وكتب قبل ذلك كتاباً وصف فيه آلة لتدوير سيخ الشواء تعمل بقوة البخار.

النهاية

سنة 1577م ظهر مذنب في السماء، فتنبأ تقي الدين بانتصارات للدولة. لكن ما جاء بعده كان الطاعون، وهزائم أمام الصفويين، وموت شخصيات كبيرة. فأقنع شيخ الإسلام وأعداء آخرون السلطان بأن التطفل على أسرار السماء جلب الشؤم. فأمر السلطان بهدم المرصد سنة 1580م، بعد ثلاث سنوات فقط من اكتماله، فهُدم حتى أساسه.

الفرق

أما مرصد تيخو براهي، فاستمر. وانتقلت أرصاده الدقيقة إلى مساعده كبلر، الذي اكتشف منها قوانين حركة الكواكب. ثم جاء غاليليو، ثم نيوتن.

وتلخص هذه القصة الفرق بين العالمين: في الشرق، كان العلم يعتمد على رضا حاكم واحد، فإن غضب أو مات، انتهى المشروع. وفي أوروبا، صار للعلم مؤسسات وجامعات ومطابع ودول متنافسة، فإن أغلق ملك الباب، انتقل العالم إلى بلد آخر.

القرن السابع عشر: أصوات تدخر

كاتب جلبي (1017-1067هـ): الموظف الموسوعي

كان موظفاً في ديوان الجيش، رافق الحملات العسكرية، وأنفق ميراثه كله على الكتب.

♦ ألف "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، فهرساً لنحو خمسة عشر ألف كتاب ونحو ثلاثمئة علم. وما زال حتى اليوم مرجعاً لا غنى عنه في معرفة التراث الإسلامي.

♦ كتب "جهان نما" في الجغرافيا، واستعمل فيه أطالس أوروبية حديثة، مثل أطلس ميركاتور، ليعرّف العثمانيين بالاكشافات الجغرافية الجديدة.

♦ كتب "ميزان الحق في اختيار الأحق"، يناقش فيه الخلافات الدينية في عصره بهدوء، ويدعو إلى الاعتدال.

وكان أول من دق جرس الخطر بوضوح. فقد شكا من أن المدارس العثمانية تركت الرياضيات والفلسفة والفلك، وصارت تكتفي بالفقه وشروح الكتب القديمة، وحذر من أن ذلك سيُضعف الدولة.

أوليا جلبي (1020-نحو 1095هـ): الرحالة العثماني

قضى نحو أربعين سنة يسافر في أرجاء الدولة العثمانية وخارجها، من فيينا إلى مصر والسودان. وكتب "سياحته نامه" في عشرة مجلدات، يصف فيها المدن والعادات واللهجات والطعام والأسواق. وهو ممتع جداً، لكنه يبالغ أحياناً ويخلط الحقيقة بالخيال.

إبراهيم متفرقة (نحو 1085-1158هـ): المطبعة أخيراً

أصله مجري، من مدينة كلوج في رومانيا اليوم. أُسر في شبابه، فاعتنق الإسلام، وصار موظفاً في الدولة.

ورأى متفرقة أن تأخر الطباعة يُضعف الدولة. فقدّم رسالة إلى الصدر الأعظم يشرح فيها فوائدها. فحصل سنة 1727م على إذن السلطان وفتوى شيخ الإسلام، بشرط ألا يطبع القرآن ولا كتب الفقه والتفسير. فطبع سبعة عشر كتاباً في اللغة والتاريخ

والجغرافيا، منها "جهان نما" لكاتب جليبي.

لماذا تأخرت الطباعة نحو ثلاثة قرون؟

يختلف المؤرخون في الأسباب، لكن أهمها:

- ◆ قداسة الخط العربي والمصحف المكتوب باليد، وخوف العلماء من أخطاء المطابع في النصوص الدينية.
- ◆ طائفة كبيرة من الخطاطين والنسّاح، كانت تعيش من نسخ الكتب.
- ◆ صعوبة تقنية حقيقية: الحروف العربية متصلة وتتغير أشكالها حسب موقعها في الكلمة، فتحتاج مئات القوالب بدل بضع عشرات في اللاتينية.

وكانت هناك مطابع في إسطنبول قبل ذلك بقرنين، لكنها لليهود والأرمن واليونانيين، يطبعون بلغاتهم.

المغرب العربي: علماء في زمن الأزمات

٦

بين سقوط غرناطة، والاحتلال الإسباني والبرتغالي للسواحل، والحكم العثماني، أنجب المغرب العربي علماء كباراً:

العالم	البلد	ما فعله
محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)	تلمسان	كتب "أم البراهين" في العقيدة، فصار يُدرّس في المغرب العربي وإفريقيا الغربية قروناً
أحمد الونشريسي (ت 914هـ)	من جبال الونشريس في الجزائر، استقر في فاس	جمع في "المعيار المغرب" آلاف الفتاوى من إفريقية والأندلس والمغرب، فصار كنزاً لمعرفة الحياة اليومية في تلك البلاد
عبد الرحمن الأخضري (ت نحو 983هـ)	قرب بسكرة في الجزائر	نظم المنطق في "السلم المرونق"، وكتب "مختصر الأخضري" في الفقه، الذي حفظه الأطفال في كل المغرب العربي
أحمد بابا التنبكتي (963-1036هـ)	تنبكت في مالي	عالم كبير في مدينة كانت عاصمة علمية. ولما غزا السعديون مدينته، نُفي إلى مراکش، وضاعت مكتبته التي كانت تضم نحو 1600 مجلد
أحمد المقرّي (986-1041هـ)	تلمسان	كتب في القاهرة "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، أعظم كتاب في تاريخ الأندلس وأدبها، وجعل محوره سيرة لسان الدين بن الخطيب
الحسن اليوسي (1040-1102هـ)	المغرب	كتب "المحاضرات"، ورسالة نصيحة شجاعة إلى السلطان المولى إسماعيل، ينتقد فيها ظلم عقّاله

الحسن الوزان: "ليون الإفريقي"

وُلد في غرناطة قبيل سقوطها، ونشأ في فاس، وصار سفيراً لسلطانها. ثم أسره قراصنة مسيحيون في البحر سنة 1518م، وقُدّم هدية إلى البابا ليون العاشر في روما. فعَمّده البابا وسمّاه باسمه.

وفي إيطاليا كتب "وصف إفريقيا"، فصار طوال قرون المصدر الأول للأوروبيين عن شمال إفريقيا وبلاد السودان. ويرجح المؤرخون أنه عاد في آخر حياته إلى تونس.

٧ في الشرق: إيران والهند

العالم	البلد	ما فعله
بهاء الدين العاملي (953-1030هـ)	إيران الصفوية	عالم موسوعي في الرياضيات والفلك والعمارة، وشارك في تصميم مباني أصفهان، وكتب "خلاصة الحساب"
ملا صدرا (979-1050هـ)	إيران الصفوية	آخر الفلاسفة الكبار في الإسلام، جمع بين الفلسفة والتصوف والكلام في "الأسفار الأربعة"
شاه ولي الله الدهلوي (1114-1176هـ)	الهند	كتب "حجة الله البالغة" عن أسرار الشريعة ومقاصدها، وترجم القرآن إلى الفارسية ليفهمه عامة الناس. ويعده كثيرون رائد الإصلاح في الهند
مرتضى الزبيدي (1145-1205هـ)	وُلد في الهند، عاش في القاهرة	كتب "تاج العروس"، أضخم معجم عربي على الإطلاق، شروحاً للقاموس المحيط

٨ لماذا تراجع العلم نسبياً؟

ليس هناك سبب واحد، ويرفض المؤرخون اليوم التفسيرات البسيطة، مثل القول إن العلم "مات" بعد الغزالي، أو إن الإسلام نفسه يعادي العلم. فقد رأيت بنفسك أن العلماء المسلمين ظلوا يبدعون قروناً بعد الغزالي. لكن هناك عوامل اجتمعت:

العامل	الشرح
عصر الشروح والحواشي	صار كثير من العلماء يكتبون شرحاً على كتاب قديم، ثم حاشية على الشرح، ثم تعليقا على الحاشية، بدل إنتاج معرفة جديدة
إهمال العلوم العقلية	تراجعت الرياضيات والفلك والفلسفة في المدارس الدينية، كما شكّا كاتب جلي
العلم المرتبط برضا الحاكم	مرصد ألغ بك انتهى بقتله، ومرصد تقي الدين بقرار سلطان. أما أوروبا فكان فيها جامعات ومؤسسات مستقلة نسبياً
تأخر الطباعة	الكتاب الأوروبي صار رخيصاً ينتشر بالآلاف، والكتاب الشرقي ظل مخطوطاً غالباً
تحول التجارة	ذهبت ثروات الأمريكتين وطرق التجارة البحرية إلى أوروبا، والمال هو ما يمول العلم
المنافسة الأوروبية	دول أوروبية كثيرة متنافسة، كل منها يريد التفوق العلمي والعسكري، وهو ما يذكّرنا بالبلاطات المتنافسة في الفصل السادس

سنة 1798م، جاء نابليون إلى مصر بجيش، ومعه أكثر من مئة وخمسين عالماً فرنسياً في كل التخصصات. فأسسوا في القاهرة "المجمع العلمي"، بمكتبة ومختبرات.

وكان المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي (1167-1240هـ) شاهداً على كل ذلك، وكتبه في تاريخه "عجائب الآثار". فزار مختبر العلماء الفرنسيين، فرأى تجارب كيميائية: سائلان يُخلطان فيتغير لونهما، أو يشتعلان، أو يحدثان صوتاً كالانفجار. ورأى الآلات الكهربائية والمكتبة التي تضم كتباً عن الإسلام والعرب، فدهش. وكتب ما معناه أنه رأى عندهم أشياء لا تستوعبها عقول أمثالنا.

وكانت تلك اللحظة صدمة لكل العالم الإسلامي. ومنها بدأ السؤال الكبير الذي سيشغل القرنين التاسع عشر والعشرين: لماذا تأخرنا؟ وكيف ننهض؟



النزعة والإصلاح

من الطهطاوي والأمير عبد القادر إلى ابن باديس ومالك بن نبي

1700-1940م

« الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. »

شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

في هذا الفصل

- ١ قبل الصدمة: حركات الإحياء في القرن الثامن عشر
- ٢ مصر: التحديث من فوق
- ٣ تونس: خير الدين
- ٤ الأمير عبد القادر: العالم المجاهد الصوفي
- ٥ الإصلاح الديني: الأستاذ والتلميذ
- ٦ الجزائر: ابن باديس وجمعية العلماء
- ٧ سنة 1924م: النهاية والسؤال المفتوح

التيارات الكبرى التي حاولت الإجابة عن سؤال واحد: كيف ننهض؟

◆ تيارات النهضة والإصلاح في العالم الإسلامي (1700-1940م)

العلماء المقاومون مقاومة الاستعمار بالسيف والكلمة معاً	الإصلاح الديني نجدد فهم الإسلام، ونحرره من الجمود، ونجمع بينه وبين العلم الحديث	التحديث من الدولة نأخذ علوم أوروبا ونظمها، بقرار من الحاكم	الإحياء من الداخل القرن 18م: العودة إلى الأصول وإصلاح المجتمع، قبل صدمة أوروبا
الأمير عبد القادر الجزائر · 1808-1883م	جمال الدين الأفغاني 1838-1897م	محمد علي باشا مصر · حكم 1805-1848م	محمد بن عبد الوهاب نجد · 1703-1792م
عمر المختار ليبيا · 1858-1931م	محمد عبده مصر · 1849-1905م	رفاعة الطهطاوي مصر · 1801-1873م	شاه ولي الله الدهلوي الهند · 1703-1762م
عبد الكريم الخطابي الريف المغربي · 1882-1963م	عبد الرحمن الكواكبي حلب · 1855-1902م	علي مبارك مصر · 1823-1893م	الشوكاني اليمن · 1759-1834م
جمعية العلماء المسلمين الجزائر · تأسست 1931م	رشيد رضا الشام ومصر · 1865-1935م	خير الدين التونسي تونس · 1820-1890م	أحمد التجاني عين ماضي ثم فاس · 1737- 1815م
	الطاهر بن عاشور تونس · 1879-1973م		محمد بن علي السنوسي مستغانم ثم ليبيا · 1787- 1859م
	عبد الحميد بن باديس قسنطينة · 1889-1940م		

١ قبل الصدمة: حركات الإحياء في القرن الثامن عشر

من الخطأ أن نظن أن العالم الإسلامي كان نائماً حتى أيقظه نابليون. ففي القرن الثامن عشر، قبل وصول الأوروبيين، ظهرت حركات إصلاح في أماكن متباعدة، دون أن يتصل بعضها ببعض أحياناً. وكانت كلها تقريباً تقول الشيء نفسه: لقد ابتعدنا عن الإسلام الأول، وعلينا أن نعود إليه.

محمد بن عبد الوهاب (1115-1206هـ)

في نجد، دعا إلى التوحيد الخالص، وحارب التبرك بالقبور والأولياء، ورأى فيه شركاً. ثم تحالف سنة 1744م مع الأمير محمد بن سعود، فقامت الدولة السعودية الأولى، التي أسقطها جيش محمد علي سنة 1818م.

ويراه أنصاره مجدداً أعاد للتوحيد صفاءه. وانتقده علماء كثيرون في عصره وبعده، ومنهم أخوه سليمان الذي كتب رداً عليه، بسبب تكفير المخالفين واستعمال القوة ضدهم. وما زالت دعوته من أكثر الحركات تأثيراً وإثارة للجدل في العالم الإسلامي المعاصر.

الشوكاني (1173-1250هـ)

في اليمن، حارب التقليد الأعمى للمذاهب، ودعا إلى الاجتهاد والعودة إلى الأدلة مباشرة. وكتابه "نيل الأوطار" ما زال يُدرّس في الحديث والفقه.

التصوف المتجدد: جزائريان غيرا إفريقيا

♦ **أحمد التجاني (1150-1230هـ):** وُلد في عين ماضي قرب الأغواط في الجزائر، وأسس الطريقة التجانية في فاس. وانتشرت بعده في إفريقيا الغربية، في السنغال ونيجيريا ومالي وغيرها، فصار أتباعها اليوم بعشرات الملايين.

♦ **محمد بن علي السنوسي (1202-1276هـ):** وُلد قرب مستغانم في الجزائر، وأسس الطريقة السنوسية، التي استقرت في ليبيا. فبنت شبكة من الزوايا في الصحراء، كانت مدارس ومراكز تجارة وملاجئ في آن واحد. ومن هذه الحركة خرج لاحقاً عمر المختار.

مصر: التحديث من فوق

٢

محمد علي وبعثاته

بعد صدمة نابليون، أراد محمد علي باشا أن يبني دولة قوية على النمط الأوروبي. فأرسل البعثات العلمية إلى فرنسا وإيطاليا، وأسس مطبعة بولاق سنة 1820م، ومدرسة للطب سنة 1827م، ومدارس للهندسة والزراعة والترجمة. وكان هدفه الأول عسكرياً واقتصادياً، لا ثقافياً: يريد جيشاً حديثاً ومصانع. لكن البعثات جاءت بشيء لم يكن في حسابه: أفكار جديدة.

حسن العطار: الشيخ الذي فهم الصدمة

كان شيخاً أزهرياً التقى بالعلماء الفرنسيين أثناء الحملة. ثم صار شيخ الأزهر، وقال ما معناه: إن أحوال بلادنا لا بد أن تتغير، وأن تتجدد فيها علوم ليست فيها. ورشّح تلميذه الشاب رفاعه الطهطاوي ليرافق أكبر بعثة إلى باريس.

رفاعة الطهطاوي (1801-1873م): رائد النهضة

ذهب إلى باريس سنة 1826م مع البعثة، لا طالباً، بل إماماً يؤم الطلاب في الصلاة ويرشدهم دينياً. لكنه تعلّم الفرنسية بنفسه بجهد هائل، وقرأ كتب فلاسفة فرنسا وعلمائها، وبقي خمس سنوات. وشهد ثورة يوليو 1830م في باريس.

ولما عاد، كتب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، يصف فيه المجتمع الفرنسي بعيون شيخ أزهرى:

ما أعجبه	ما تحفظ عليه
حب الفرنسيين للعلم والقراءة، ونظافة مدنهم	بعض العادات الاجتماعية المخالفة لتقاليد المسلمين

ما أعجبه	ما تحفظ عليه
"الشرطة" الفرنسية، أي الدستور، وترجمه كاملاً وأعجب بفكرة أن الحاكم يخضع للقانون	تقديم العقل على الوحي عند بعض فلاسفتهم
العدل والمساواة أمام القانون	

ثم أسس "مدرسة الألسن" لتعليم اللغات والترجمة، فترجم هو وتلاميذه مئات الكتب في الجغرافيا والتاريخ والقانون والعلوم. ونفاه الوالي عباس الأول إلى السودان أربع سنوات، ثم عاد. وكتب "المرشد الأمين للبنات والبنين"، ودعا فيه إلى تعليم البنات، وهي فكرة جريئة جداً في عصره.

علي مبارك (1823-1893م)

كان ابن فلاح فقير، فصار وزيراً للمعارف. فأسس "دار العلوم" سنة 1872م لتخريج معلمي العربية بمناهج حديثة، ونظم التعليم في مصر، وكتب "الخطط التوفيقية"، مكملًا لخطط المقرريزي.

تونس: خير الدين

٣

كان خير الدين (1820-1890م) مملوكاً شركسياً، بيع صغيراً في إسطنبول، وانتهى إلى قصر باي تونس. فتعلم وصعد، حتى صار وزيراً أكبر لتونس، ثم صدرأ أعظم للدولة العثمانية كلها.

كتب "أفوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وفيه فكرته الأساسية: أوروبا لم تتقدم لأنها مسيحية، بل لأن عندها مؤسسات عادلة، وحكماً مقبداً بالقانون، وحرية. وهذه كلها، في رأيه، لا تتعارض مع الشريعة، بل تتفق مع مقاصدها. وأسس المدرسة الصادقية سنة 1875م، التي جمعت بين العلوم الدينية والحديثة واللغات الأجنبية.

وكانت تونس قد أصدرت سنة 1861م أول دستور في العالم العربي.

الأمير عبد القادر: العالم المجاهد الصوفي

٤

البداية

وُلد سنة 1808م في القيطنة قرب معسكر، في أسرة صوفية قادرية. ودرس في زاوية أبيه ثم في وهران، وحجّ مع أبيه شاباً، وزار بغداد ودمشق.

وحين احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م، اجتمعت القبائل حول أسرته. فبويع أميراً سنة 1832م تحت شجرة الدردارة قرب معسكر، وهو في الرابعة والعشرين.

الدولة

لم يكن مجرد قائد مقاومة، بل بنى دولة: وزارات، وجيشاً نظامياً، وعملة، ومصانع للسلاح، ومدارس، وعاصمة محصنة في تاقدمت قرب تيارت، وعاصمة متنقلة هي "الزمالة". وقاوم خمس عشرة سنة، ووقع مع الفرنسيين معاهدتين اعترفوا فيهما بسلطته على جزء كبير من البلاد.

الأسر

في نهاية سنة 1847م، استسلم بعد أن وعده الفرنسيون بنفيه إلى الإسكندرية أو عكا. لكنهم نقضوا الوعد، وسجنوه في فرنسا نحو خمس سنوات، في قصر أمبواز وغيره. ثم أطلقه نابليون الثالث سنة 1852م، فاستقر في بورصة، ثم في دمشق.

دمشق 1860: الموقف الذي أدهش العالم

سنة 1860م، امتدت فتنة طائفية من جبل لبنان إلى دمشق، فهاجمت الحشود حي النصارى. فخرج الأمير عبد القادر مع رجاله الجزائريين، وأوى آلاف المسيحيين في بيته وبيوت أصحابه، وحماهم من القتل. وأرسل إليه زعماء العالم الأوسمة والهدايا: من فرنسا وروسيا وبريطانيا والبابا، وأرسل له الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن زوجاً من المسدسات. وكانت في أمريكا بلدة سُميت باسمه منذ 1846م، هي "الكادر" في ولاية آيوا.

العالم الصوفي

وفي دمشق تفرغ للعلم والتصوف. فكتب "المواقف"، تأملات صوفية على طريقة ابن عربي، وكتب رسالة "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، يشرح فيها أن العقل والعلم والدين لا تتعارض. وكان شديد التعلق بابن عربي، فمؤل نسخ كتابه "الفتوحات المكية" ونشره.

ولما مات سنة 1883م، دُفن إلى جانب ابن عربي في دمشق، كما أوصى. وهكذا تلتقي القصة بنفسها: الشيخ الأكبر الذي رأيناه في الفصل السابع، والأمير الذي رقد بجانبه بعد ستة قرون ونصف. ثم نُقلت رفاته إلى الجزائر سنة 1966م، بعد الاستقلال.

الإصلاح الديني: الأستاذ والتلميذ

جمال الدين الأفغاني (1838-1897م): الشرارة

أصله موضع خلاف: هو نفسه قال إنه أفغاني، ويرى باحثون كثيرون أنه وُلد في إيران. وكان رحّالة ثائراً: في أفغانستان والهند وإسطنبول والقاهرة وباريس ولندن وروسيا. وحيثما ذهب، جمع حوله الشباب، ودعاهم إلى ثلاثة أشياء: مقاومة الاستعمار الأوروبي، ووحدة المسلمين، وتحرير العقل من الجمود.

وفي باريس سنة 1884م، أصدر مع تلميذه محمد عبده مجلة "العروة الوثقى"، التي لم تعيش إلا ثمانية عشر عدداً، لكنها انتشرت في العالم الإسلامي كله. وفيها أيضاً ناظر المستشرق الفرنسي إرنست رينان، الذي زعم أن الإسلام يعادي العلم بطبيعته. فرد الأفغاني بأن تخلف المسلمين ليس سببه الإسلام، بل الاستبداد والجمود.

محمد عبده (1849-1905م): المفكر

تلميذ الأفغاني الأقرب، لكنه كان أهدأ منه وأعمق. شارك في الثورة العربية، فثفي بعد فشلها. ثم عاد إلى مصر، وصار قاضياً، ثم مفتي الديار المصرية سنة 1899م.

وكانت أفكاره الأساسية:

- ♦ العقل والوحي لا يتعارضان، والإسلام دين العقل.
- ♦ يجب فتح باب الاجتهاد، وعدم الاكتفاء بتقليد الأقدمين.
- ♦ يجب إصلاح التعليم، بدءاً من الأزهر نفسه. فأدخل فيه دروس الجغرافيا والرياضيات والتاريخ، وواجه مقاومة شديدة من كثير من شيوخه.

وكتب "رسالة التوحيد"، وألقى دروساً في التفسير جمعها تلميذه رشيد رضا. وتُنسب إليه عبارة شهيرة:

« ذهب إلى الغرب فوجدت إسلاماً ولم أجد مسلمين، وعدت إلى الشرق فوجدت مسلمين ولم أجد إسلاماً. »

أي أنه وجد في أوروبا قيم النظام والعمل والعدل، ووجد في الشرق التدين الشكلي دون هذه القيم.

وزار الجزائر وتونس سنة 1903م، والتقى علماءهما، فترك أثراً في الجيل الذي سيقود الإصلاح فيهما.

تلاميذ ومعاصرون

المصالح	ما فعله
رشيد رضا (1865-1935م)	أصدر مجلة "المنار" سبعاً وثلاثين سنة، فكانت تُقرأ من المغرب إلى إندونيسيا. وأكمل "تفسير المنار"، ومال في آخر حياته إلى منهج أقرب إلى السلفية
عبد الرحمن الخواكي (1855-1902م)	كتب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، وحلّل فيه كيف يُفسد الاستبداد كل شيء: الدين والعلم والأخلاق والاقتصاد. وكتب "أم القرى"، يتخيل فيه مؤتمراً لعلماء المسلمين في مكة يبحثون أسباب التخلف. ومات في القاهرة، ويقال إنه مات مسموماً
قاسم أمين (1863-1908م)	كتب "تحرير المرأة"، ودعا إلى تعليمها، فأثار جدلاً هائلاً في مصر والعالم الإسلامي
سيد أحمد خان (1817-1898م)	في الهند، أسس كلية عليكرة سنة 1875م، لتجمع بين التعليم الإسلامي والعلوم الحديثة
محمد إقبال (1877-1938م)	في الهند أيضاً، شاعر وفيلسوف، كتب "تجديد الفكر الديني في الإسلام"

الطاهر بن عاشور (1879-1973م): تونس

شيخ جامع الزيتونة، وأحد أعظم علماء القرن العشرين. كتب "التحرير والتنوير"، تفسيراً للقرآن استغرق نحو أربعين سنة. وأعاد إحياء علم "مقاصد الشريعة" في كتابه الذي يحمل هذا الاسم، فربط نفسه بالشاطبي الذي رأيناه في غرناطة. وكتب "أليس الصبح بقريب؟"، ينتقد فيه أساليب التعليم التقليدية ويقترح إصلاحها.

الجزائر: ابن باديس وجمعية العلماء

٦

السياق

بعد مئة سنة من الاحتلال، كانت فرنسا قد صادرت أوقاف المساجد والزوايا، وأغلقت كثيراً من المدارس العربية، فانهار التعليم التقليدي. وفي سنة 1930م، احتفلت فرنسا بمرور قرن على الاحتلال باحتفالات ضخمة، وكأنها تعلن أن الجزائر صارت فرنسية إلى الأبد. فكان ذلك استفزازاً عميقاً.

عبد الحميد بن باديس (1889-1940م)

وُلد في قسنطينة لأسرة عريقة، ترجع حسب نسبها إلى الزيريين الصنهاجيين، الذين حكموا إفريقية قبل ألف سنة. ودرس في جامع الزيتونة بتونس.

وفي سنة 1913م، حجّ والتقى في المدينة المنورة بمحمد البشير الإبراهيمي. ففضيا ليالي طويلة يخططان معاً لإنقاذ الجزائر بالتعليم.

ولما عاد، جلس في الجامع الأخضر بقسنطينة يفسّر القرآن، فاستمر خمساً وعشرين سنة حتى ختمه سنة 1938م. وأصدر الصحف: "المنتقد" التي أغلقتها السلطات الفرنسية بعد أشهر، ثم "الشهاب".

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تأسست في 5 مايو 1931م، برئاسة ابن باديس. وكان شعارها:

« الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. »

فأنشأت مئات المدارس الحرة في أنحاء الجزائر، تعلّم الأطفال العربية والقرآن والتاريخ، وتحفظ هوية الشعب في وجه سياسة الإدماج الفرنسية. وكتب ابن باديس قصيدة شهيرة عن هوية الشعب الجزائري، ما زال الأطفال يحفظونها في المدارس حتى اليوم.

ومن رجالها:

- ♦ **محمد البشير الإبراهيمي:** نفته فرنسا إلى آفلو سنة 1940م، وهناك بلغه خبر وفاة ابن باديس، فانتُخب رئيساً للجمعية وهو في المنفى. وكان من أبلغ كتّاب العربية في عصره.
- ♦ **مبارك الميلي:** كتب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، ليعرّف الجزائريين بتاريخهم الذي كانت المدرسة الفرنسية تخفيه عنهم.
- ♦ **العربي التبسي:** اختطفه الجيش الفرنسي أثناء حرب التحرير سنة 1957م، ولم يُعثر على جثمانه.

ومات ابن باديس في 16 أبريل 1940م، ويحتفل الجزائريون بهذا اليوم كل عام باسم "يوم العلم". والجيل الذي تخرج من مدارس الجمعية، كان من الذين أشعلوا ثورة التحرير سنة 1954م.

سنة 1924م: النهاية والسؤال المفتوح

V

حين ألغى البرلمان التركي الخلافة في 3 مارس 1924م، كما رأينا في القصة العثمانية، انقسم العلماء:

- ♦ رشيد رضا كان قد كتب قبلها كتاباً يدافع فيه عن الخلافة ويقترح إصلاحها.
- ♦ وحاول علماء الأزهر عقد مؤتمر في القاهرة سنة 1926م لاختيار خليفة جديد، ففشل.
- ♦ وفي 1925م، نشر الشيخ الأزهرى علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم"، وقال فيه إن الخلافة ليست فريضة دينية، بل نظام سياسي تاريخي. فسحبت منه هيئة كبار العلماء شهادته وطرده من سلكها، وأثار الكتاب واحداً من أكبر النقاشات في الفكر الإسلامي الحديث.

مالك بن نبي: وريث سؤال ابن خلدون

وبعد كل هذا، جاء مفكر جزائري آخر من قسنطينة، هو مالك بن نبي (1905-1973م)، لي طرح السؤال بطريقة جديدة. كان مهندساً درس في فرنسا، وكتب أغلب كتبه بالفرنسية، في سلسلة سمّاها "مشكلات الحضارة"، أشهرها "شروط النهضة". وأشهر أفكاره "القابلية للاستعمار": أن الاستعمار لم ينتصر بقوته فقط، بل لأن المجتمعات المسلمة كانت قد ضعفت من الداخل قبل وصوله، فصارت "قابلة" له. فالحل في رأيه لا يبدأ بطرد المستعمر وحده، بل بإعادة بناء الإنسان والفكرة والعمل. وهو بذلك يعود إلى السؤال الذي طرحه ابن خلدون قبل ستة قرون: لماذا تقوم الحضارات ولماذا تسقط؟



الرحلة كلها

الخريطة الكبرى، والدروس، ومكتبة الرحلة

من مكة إلى قسطنطينة

« الحضارة غاية العمران، ونهاية لعمره. »

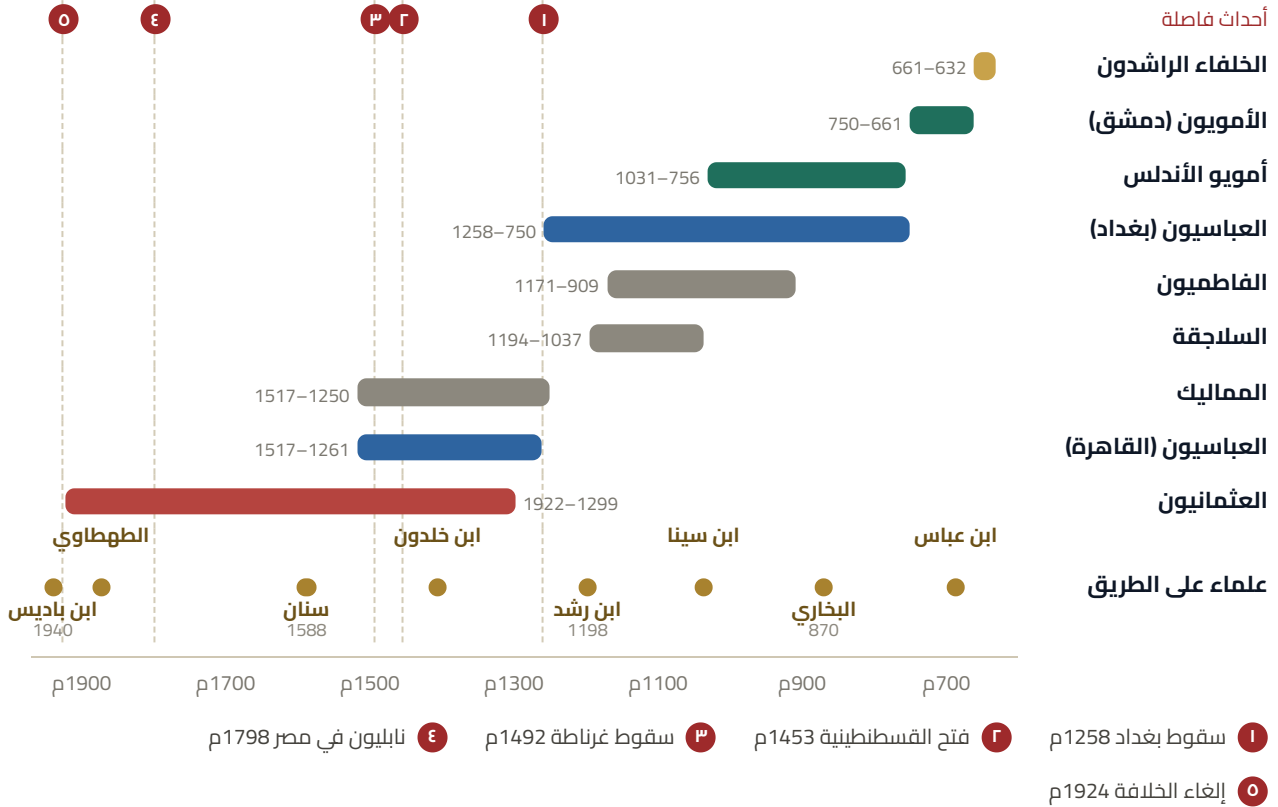
ابن خلدون، المقدمة

في هذا الفصل

- الرحلة كلها في نظرة واحدة
- مكتبة الرحلة: كتب ذكرت في هذه السلسلة وتستحق القراءة
- خمسة دروس من ثلاثة عشر قرناً

الرحلة كلها في نظرة واحدة

الخريطة الكبرى: الدول والعلماء من القرن السابع إلى القرن العشرين



الفصل	العصر	المراكز	أبرز الوجوه	الفكرة الكبرى
٤	الصحابة والامويون	المدينة، الكوفة، البصرة، مكة	ابن عباس، عائشة، الحسن البصري، أبو الأسود	ولادة العلوم: جمع القرآن، الإسناد، النحو
٥	العصر العباسي الذهبي	بغداد	الأئمة الأربعة، البخاري، الخليل، الخوارزمي، الكندي	التأسيس: المذاهب، كتب الحديث، الترجمة
٦	عصر الموسوعيين	بخاري، القاهرة، قرطبة، حلب	ابن سينا، ابن الهيثم، البيروني، الغزالي، ابن حزم	القمة: التجربة، الفلسفة، الإبداع في كل مكان
٧	الصليبيون والمغول	مراكش، قرطبة، دمشق، مراغة	ابن رشد، ابن عربي، ابن النفيس، الطوسي	انتقال العلم إلى أوروبا، والصمود رغم الكارثة
٨	المماليك	القاهرة، دمشق، فاس، سمرقند	ابن تيمية، ابن بطوطة، ابن الشاطر، ابن خلدون	حفظ التراث، وولادة علم الاجتماع
٩	العثمانيون	إسطنبول، تلمسان، أصفهان	سنان، تقي الدين، كاتب جلي، المقري	مفترق الطرق مع أوروبا

الفصل	العصر	المراكز	أبرز الوجوه	الفكرة الكبرى
١٠	النهضة	القاهرة، تونس، دمشق، قسنطينة	الطهطاوي، عبد القادر، عبده، ابن باديس	سؤال النهضة: لماذا تأخرنا، وكيف نهض؟

خمسة دروس من ثلاثة عشر قرناً

- الدول تموت، والعلم يبقى.** سقطت دمشق الأموية وبغداد العباسية وإسطنبول العثمانية، لكن "الموطأ" و"صحيح البخاري" و"القانون" و"المقدمة" ما زالت تُقرأ.
- التفكك السياسي لم يقتل العلم، بل نشطه أحياناً.** حين تعددت البلاطات في القرنين الرابع والخامس، تنافس الأمراء على العلماء، فجاء العصر الأكثر إبداعاً.
- العلم الذي يعيش برضا حاكم واحد، يموت بغضبه.** مرصد ألغ بك ومرصد تقي الدين انتهى بقرار أو بقتل. أما ما بُني على مؤسسات وأوقاف، كالأزهر والقرويين والزيتونة، فعاش قروناً.
- الغالب يذوب في حضارة المغلوب إن كانت أقوى ثقافياً.** المغول دمّروا بغداد، ثم صار أحفادهم رعاة للعلم في تبريز وسمرقند ودلهي.
- سؤال ابن خلدون لم يُغلق بعد.** من "العصبية" عنده، إلى "القابلية للاستعمار" عند مالك بن نبي، يبقى السؤال نفسه: ما الذي يجعل الأمم تنهض، وما الذي يجعلها تسقط؟

مكتبة الرحلة: كتب ذكرت في هذه السلسلة وتستحق القراءة

الكتاب	المؤلف	لماذا تقرأه
طوق الحمامة	ابن حزم	تحليل نفسي للحب والعلاقات قبل ألف سنة، قصير وممتع
المقدمة	ابن خلدون	لتفهم كيف تقوم الدول وتسقط، وهو أساس كل ما بعده
رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار)	ابن بطوطة	مغامرة حقيقية عبر العالم في القرن الرابع عشر
المنقذ من الضلال	الغزالي	سيرة ذاتية قصيرة لرحلة عقل من الشك إلى اليقين
حي بن يقظان	ابن طفيل	قصة فلسفية قصيرة عن العقل يكتشف العالم وحده
البلاء	الجاحظ	من أطرف ما كُتب بالعربية
صيد الخاطر	ابن الجوزي	خواطر في الحياة والنفس، تُقرأ صفحة صفحة
تخليص الإبريز في تلخيص باريز	رفاعة الطهطاوي	أول نظرة عربية حديثة إلى أوروبا
طبائع الاستبداد	الكواكبي	تحليل قصير وحاد للأثر الاستبداد على كل شيء

الكتاب	المؤلف	لماذا تقرأه
شروط النهضة	مالك بن نبي	السؤال الكبير بلغة القرن العشرين، ومن مفكر جزائري



إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على الإخبار،
وفي باطنه نظر وتحقيق.

ابن خلدون

من مكة إلى قسطنطينة

الأمويون · العباسيون · العثمانيون · قصة العلم والعلماء